الطبعة 2

لكَ أنت

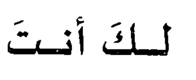
كما تريد أن أكون

رواية

حَنان كِثيرة

دار اكتب

٧٣٨٧٣٢


لـكَ أنـتَ

لكَ أنتَ

حنان كثيرة

الطبعة الأولى ، القاهرة 2017م

غلاف : أحمد فرج

تدقيق لغوي : خالد المصري

رقم الإيداع : 27637 /2016

I.S.B.N: 978-977-488-497-9



دار اكتب للنشر والتوزيع

العنوان : 12 ش عبد الهادي الطحان ، من ش الشيخ منصور، المرج الغربية ، القاهرة ، مصر

هاتف : 01144552557

بريد إلكتروني : daroktob1@yahoo.com

لكَ أنــتَ

رواية

حنان كثيرة



دار اكتب للنشر والتوزيع



لا تتوقَّع مني الكثير .. ولا ترفع سقف معنوياتك بي ..
لا تجعلني الفُضلى على الجميع .. ربما لا أستحقُّ .. أنت
بذلك ستضعني في معاناة في كل موقف.. وفي كل لحظة..
بل في كل نفس أستنشقه .. لكيلا أخذلك .. ربما عندما
تعتقد أني عادية.. سأفرح كثيرًا عندما أحقق شيئًا ما
أعلى مما تتوقع .. أظنُّ ذلك.



الجانب الأول

(سأظلُّ أُحبُّك .. ولكن...)



رمادي .. غير واضح ..بدون شيء يميزه .. قد يعتليه اللون الأحمر أحيانًا .. لأدرك أنه حقًّا طريقي الذي أسير به بدون أي تراجُعٍ .. إنه عالمي .. يأخذني إلى حيث لا أعلمُ.. عالم مليء بالحريات .. بكل الحريات .. إلا حرية العقل .. لأنه مهزوم.



1

هكذا كانت حياة الكثير منا نحن الشباب..في وسط غياب الوعي، غياب الفكر، والنفس.. وسط الكثير من الضباب، فَقَدَ الإدراك بكل شيء.. لننسى كل شيء، ولننسى كل هَمٍّ صغيرًا كان أم كبيرًا.. يستحق أو لا.. أو حتى من باب الفضول.. للتجربة.. أو للنسيان.. أو حتى مجرد كماليةٍ لذاتنا الثرية.. تضيف لشخصيتنا تفاهة..

مهما نكن أغنياء أو فقراء.. مهمومين أو خاليّ البال فإن في وسط هذا الضباب يجمعهما.. عدم المبالاة بالإدمان..

هكذا كانت حياتي أنا.. فتاةٌ جامعية كما يظنها الجميع.. لستُ قليلة بجمالي.. بالطبع سأكون كاذبة فمن منا يرى نفسه قبيحًا، وإن كنتُ أعلم الآن أن حُسن الوجه نعمة من نعم الله، والحفاظ عليه

نعمة أخرى، وبالرغم من امتلاكي للأولى فإني لم أحسن باستخدام الثانية.. فإن استزدت بوصفي ستجدني مثل الأخريات..أمتلك جسدًا نحيلًا، وشعرًا أسود كسواد الليل وطويل، وعينين سوداوين.. ربما ما جعلني مختلفة نوعًا ما هو امتلاكي الكثير من الثقة، ولأصدق قولًا الكثير من الغرور، وليس هذا بحسب ما زادني اختلافًا.. بل كنتُ محظوظة بقدر كبير بأن يكون والدي من أشهر رجال الأعمال، وأكثرهم نجاحًا.. فازددت شهرة وقوة بثراء ونفوذ والدي، ولذلك لم يكن غريبًا ألَّا أهتمَّ بدراستي على الإطلاق، وأيضًا لم يكن يشغلني أن أفكر بماذا سيكون شكل مستقبلي.. فلم أخطط لغدي قط.. فقط أعيش يومي مثلما أريد، وكما أريد.

حظ جيد أو سوء حظ.. فقط فهي مشجب نُعلِّق عليه ما نريد، نتحجج به كما نريد، وإذا أردنا تبرير أخطائنا فسنأتي بأكثر من مئة عُذرٍ بسبب الحظ.

هكذا كنتُ أنا.. إذا تحقَّق ما أريد ألحن بحظي الجيد بامتلاكي والدٍ هكذا، وإذا تخبَّطت بي الدنيا أرثي حظي التعس بأني أمتلك والدًا مثله.. فكان كل سبب لكل شيء.. هو والدي.

مشابهة أنا بالكثير،مختلفة بإنسانيتي عنهم..إنسانيتي التي اضمحلت بغياب عقلي.. العقل الذي يُحدِّد مكان كل إمرئٍ منا.. نسبنا هو مَن يُحدِّد من أين نأتي، ولكن عقلنا وأفعالنا ما يحددان إلى أين سنصل..

فأصبحتُ محاطة بمجموعة من الأصدقاء في الليل الذين يتشابهون بحالهم السيئ معي لنتبادل كل طرق الإدمان، وبالطبع لا أحب أن أُطلق على ذاتي أني فتاة جامعية لأني لم أكن معتادة ذهابي إلى الجامعة، ولم تشغل الدراسة اهتمامًا في حياتي.. إلا إذا أردنا إقامة حفلة صاخبة أنا وأصدقائي حينها ستجدنا هناك لنقوم بدعوة الجميع، وإذا ذهبتُ يكون حضوري صاخبًا، ووجودي لافتًا للانتباه.. سواء مني أو ممن يحيطون بي، وكما يعني المثل فإن من الوزير للغفير يعلمون بحضوري بسبب ما أُحدِثُه من صخبٍ..

ولما لا يتملكني الغرور، وخاصة برؤيتي لبعض الشباب يصطفُّون جانبًا بجوار سيارتي ينتظرون أن أدلف منها.. كنت أستمتع برؤيتهم كذلك، وأستمتع بتعالِيَّ عليهم.. كان ذلك يزداد بنفسي غرورًا، لن أبالغ بتمجيدهم لأن الآن لم يتعدَّ مستواهم من منطلق نظري سوى مجرد شبُان يريدون مصاحبتي من أجل شيئين لا ثالث لهما.. الشهرة، والنفوذ لا أكثر..

كنتُ أكثر الفتيات صخبًا وإدمانًا، وما زلتُ أتمتع بتلك الشهرة العالية إلى الآن، ولكن بشكل آخر.. فشهرة عن شهرة تختلف..

من قال إن الشخص لا يدرك أفعاله السيئة؟ سلوكياته وأفكاره ونياته..لا أظن ذلك فجميعنا نعلم ذلك وندركه في قرارة أنفسنا.

لن أنسى أيامي تلك، ومن أكثر الأيام التي ستخلد بذاكرتي لمماتي ذلك اليوم، السادس والعشرون من شهر سبتمبر، ولن أنساها هي

أيضًا تلك الفتاة التي كانت تسير بدراجتها ذات اللون الأرجواني بسرعة تسابق بها الزمن لكي تلحق محاضرتها.. حتى ارتطم بها أحد الشبان المصطفين أمامي فوقعت تلك الفتاة، لم يكن أحد من هؤلاء الشبان ليُساعدها على النهوض أو ينظم معها ما تم إحداثه من فوضى بسبب أوراقها المتناثرة حتى جيتارها.. فقد كُسرَ منه بعض الأشياء، لم ألاحظ تفاصيل وجهها جيدًا فقط دراجتها وجيتارها الذي كان مثبت بخلف الدراجة ذات نفس اللون.. جعلاني انتبه لها، ونادرًا ما كنتُ قد أنتبه إلى أحد غيري، والمخدرات..

ذلك اليوم كان المقرر أن ألتقي أنا، وأصدقائي فيه.. لنحدد مكان احتفالنا في سهرة هذه الليلة..

نادرًا ما كان يعم وجهي ابتسامة نابعة حقًا من قلبي، فبالرغم من مدى حريتي بفعل كل شيء.. فإن ذلك لم يجعلني مرنةً، وإنما كنت شخصية عنيدة..

أصبح هذا الفراغ الذي بي يتملكني.. الفراغ الذي لن يجعلني أستطيع أن أرى مستقبلي بكل وضوح.. فراغ يتملكني بعدم معرفة ماذا أريد حقًا؟.. فراغ بكل شيء.. فراغ بأن كل شيء طبيعي، ومهما يحدث في العالم فليحدث..

تابعنا حديثنا أنا، وأصدقائي في أحد شوارع الجامعة ومرورًا بطرقات المبنى الدراسي:

- لينا .. مرحبًا.

قالها أعز أصدقائي (علي) فرحًا بملاقاتي.. لأتبعها تحية له، ولأصدقائي الآخرين (محمود) و(رانيا):

- مرحبًا بكم يا شباب.. كيف حالكم؟

- بخير تمامًا.

قالها (محمود) بينما ارتطم به شخصٌ وهو يمر بجانبنا، بدا كأنه طالب جديد.. كاد محمود يسبُّه لولا أنه تمالك ذاته في آخر لحظة.. فتابعت حديثي باندهاش:

- يبدو أنه طالب جديد.

- صحيح.. واضح أيضًا أنه ذو شخصية صعبة، وغير مُحبٍّ للصُّحبة.

قالتها (رانيا) التي كانت بنظراها تتفقّد الجميع.. فلم يمر من تحت يديها شخص إلا وتعلم بشأنه.. ليتابع (علي) قوله لها:

- ما أسرعك في أن تصفي الأشخاص من النظرة الأولى يا (رانيا)!

كانت أحاديث (رانيا)، و(علي) تجعلني أضحك فهما دائمًا يختلفان في وجهات نظرهما وأحاديثهما.. إذا قال يمينًا قالت يسارًا، وإذا قالت يمينًا قال يسارًا، وبالرغم من صفو حالهم ينقلب للأسوأ

بتلك الاختلافات والمشاحنات فقد كانت ما يسعدني في يومي فكنتُ أشعر معهم وكأنهم عائلتي.. بل هم عائلتي.

- أين سنجتمع اليوم يا شباب؟

- ما رأيكم اليوم إذا أقمنا الحفلة في منزل علي؟

- لا.. لا.. يا لينا.. أمي موجودة اليوم وستعكر علينا صفو السهرة.

- إذن.. فلتأتوا عندي أنا.. الأمور في منزلي على ما يُرام.

- حسنًا.. ما رأيك لينا؟

- حسنًا إذن.. سنلتقي الليلة في منزل (محمود).

كنتُ بصفي الأول، وأنا على ذلك المنوال منذ عدة سنوات.. لم أجتز صفي الأول بعد، ولم أدخل الامتحانات قط.. فقط ما يُبقيني في الجامعة هو نفوذ والدي.. بل والديهم أيضًا.. فكان (محمود) و(علي) و(رانيا) يسيرون بحالهم مثلي تمامًا..

حتى تتابعت أنا وأصدقائي في دخولنا للصف.. فتوقفت عند باب الصف وقام (علي) حينها بمناولتي إحدى السجائر حذرًا.. قائلًا:

- هدية هذا الصباح.

فأخذت نفسًا عميقًا من هذه المخدرات، وتابعت قولي له:

- قوي.. هكذا يصير هذا الصباح أحلى.

- من إيطاليا ترسل لكِ أجمل صباح.

- بونجرنو.. إيطاليا...

ظللنا نضحك على أثرها حتى دخلنا الصف، وأنا كعادتي غير مبالية بالأستاذ، وأسخر منه في همساتي.. فيتضاحك أصدقائي من أثر المخدرات المتراكمة في أجسادهم بصورة هستيرية.. يتابعون هم أيضًا هماستهم بسخرية،ولكن الجديد في الأمر أن ذلك الطالب الجديد كان بنفس صفي أيضًا، لم يكن شاغلي الأهم أن أتعرف إليه.. أو أن أعرف عنه شيئًا.. فقط كل ما أعرفه عنه أنه يُفضل أن يجلس بالمقاعد الأمامية في صَفّنا، كان يبدو عليه اهتمامه البالغ بالدراسة، وبتعدد المرات التي كنت أنظر فيها إليه كنت أشعر بأنه رسام أو فنان.. أو شيء من هذا القبيل..

- أحب في البداية.. أن أعرفكم بزميلكم الجديد (مالك).

- زميل جديد.. الكلية مزدحمة بما تكفي، ولا تستوعب طلابًا جُددًا.

- محمود.

فهممتُ أنا بالرد سريعًا لإنقاذ صديقي:

- يا أستاذ.. إنما (محمود) لا يقصد شيء.. أهلًا بك أيها الطالب الجديد..

وأسرعتُ بتحويل موضوع الحديث.. كعادتي:

- ولكن أستاذي.. هل رابطة عنقك التي ترتديها مقلمة؟

قلتُها، وأنا أرسم على وجهي علامات الدهشة والاستغراب.. ليشاركني محمود الحديث:

- لا إنها مشجرة يا لينا .. لقد أنهكتك المخدرات اليوم باكرًا.

قالها هامسًا لي.. حتى أكمل بصوت مرتفع ليسمعه أستاذنا:

- إنها لا تليق بك يا أستاذ على كل حال.. صحيح يا علي؟

- صحيح يا صديقي.. الذي يحيرني هل لونها أسود أم أزرق؟

ظللتُ أضحك أنا،وأصدقائي بطريقة هيستيرية إلى أن قام الأستاذ بطردنا من الصف، وعندها ولأول مرة نظر لي (مالك) ليرسم انطباعه عني، ظل ينظر لي ولأصدقائي بنظرة اشمئزاز واحتقار،ولماذا لا ينظر لنا هكذا؟ فأنا وأصدقائي نسير في طريق، وهو والآخرون في طريق آخر.

خرجتُ من صفي أنا وأصدقائي نتضاحك في طرقات الكلية التي تكاد تكون خالية، وذهبنا إلى بعض الأماكن التي لا يستطيع أن يرانا فيها أحد؛ لكي ندخن السجائر المليئة بالمخدرات كما يحلو لنا، وما إن مَرَّ علينا شابٌّ ذو ثلاثين عامًا تقريبًا حتى ظَلَّ يُحدِّقُ بنا.. ليقف ليتأملنا ونحن هكذا.. فنظرت له وأنا أضحك حتى قمتُ برفع صوتي ليسمع ما سأقوله له:

– يا.. يا.. أجل أنت لِمَ تحدق هكذا؟ أتريد بعض السجائر؟

لم يستطع أن يقوم بالرد على حديثي له.. بل تملَّكه الدهشة لبضع ثوان ثم نظر لي نظرة اشمئزاز أيضًا، وتركنا ورحل.

ظللنا نتواصل أنا، وأصدقائي الضحك بطريقة غير طبيعية على هذا الشاب أيضًا.. بالفعل لقد كنا غير طبيعيين على الإطلاق.. فسارع (علي) بمتابعة الحديث بيننا:

– ما بال أستاذنا صاحب رابطة العنق؟! لِمَ هو متضايق هكذا؟

لتحرك (رانيا) كتفيها مشيرةً بعدم معرفتها.. إلى أن تابعت أنا سريعًا في الرد:

– أفكر بأن نجعله يُجرِّب..

– أو نضع له هذه الحبوب المخدرة عَنوةً ..

– فكرة جيدة يا محمود، ولتكن في كوب الشاي مثلًا.

في كوب الشاي.. كانت تلك فكرة (رانيا).. مخيلتها التي لا تتوقف.. فتابعت قولي وأنا أضحكُ:

– أجل.. أجل، وهكذا سيتجاوب معنا، ولن يستطيع أن يطردنا مرة أخرى.

– سيجارتي انتهت.. ألا يوجد معكم شيء آخر؟

– أنا إذًا سأُعطيك يا علي أفضل ما يوجد معي.. هذا مستورد من المكسيك.

– لينا.. لِمَ هو؟

– لا تقلقي عزيزتي.. يوجد المزيد..

– حقًّا.. أنتِ أكثر من ممتازة.

– أعلمُ يا علي.

انتبهت عميدة الكلية،وهي تمر في الطرقات لرائحة الدخان المنبعثة من سجائرنا حتى اقتفت أثرنا وتوجَّهت إلينا.

– لينا.. ما هذا؟

كدتُ أرتعب من حديثها، وتمالكت ذاتي بقوة لأستجمع ثقتي أمامها لكي أحدثها.

– لا شيء.

حتى قمتُ بإمساك أوراقها التي بيدها بينما باقي أصدقائي قد هربوا في لمح البصر.

– لينا.. هذا آخر إنذار لكِ..

وسرعان ما تبدَّل شدِها معي في الحديث إلى نُصحٍ.

– لينا.. فلتتركِي هذا المكان يا ابنتي، وألقي بهذه القمامة من يديكِ..

- فقط يا أستاذتي لا تغضبي هكذا مني.. إنما هذه السجائر ما تجعل أيامنا أجمل ..

- أرجوكِ يا لينا.. فلتتوخّي الحذر هذه الأشياء هالكة.. لا تدركين أنكِ قد فقدتِ شيئًا إلا بعد فوات الأوان.

- لماذا يغمرك كل هذا القلق؟.. إذا ظلت أمي على قيد الحياة ما كانت ستقلق عليّ مثلُك!

- ولأن أمك كانت لي أكثر من أخت.. كيف لي أن أترك ابنتها هكذا؟ فأنتِ أيضًا ابنة أخت زوجي، وواجبي أن أحافظ عليكِ..

ليتغير أسلوبي المستهتر الضاحك لتصبح كلماتي هادئة لكي أطمئنها:

- لا تقلقِي.. سأكون بخير، ولكيلا أُغضبك سأحضر المحاضرة التالية.. جيد؟

- بداية جيدة ..

وعندها قمتُ بتقبيل رأسها، وكأني أُقبِّل والدتي تمامًا لألتمس منها بعضًا من ذلك السحر.. السحر بين الأم وابنتها.

تابعتُ طريقي نحو الصف، ولأن المشاغبات، والمشكلات هي رفيقتي دائمًا بقصد أو بدون قصد.. فإن الطلاب المتفوقين فقط هم من كان يُصيبهم خيبة الأمل بحضوري لعلمهم أن المحاضرة لن تسير

بخير ما دمتُ أنا موجودة، وما كانت من صاعقة أصابتني جعلت مني أن أنتبه للوهلة الأولى إلى أستاذ المادة.. إنه ذاك الشابُّ الذي كنتُ قد دعوته للانضمام معي أنا، وأصدقائي في تناول بعض من المخدرات حتى استقرَّ واقفًا بثبات، وثقة في منتصف الغرفة ليبدأ إلقاء محاضرته.. بينما أنا فقط اتسعت حدقتا عينيَّ، وقد أصابني الإحباط بأن الأمر لن يمر بسلام مما جعلني أحاول أن أختبئ وراء أيِّ أحد لكيلا يُلاحظني.

- أهلًا بكم.. أنا أستاذكم الجديد.. منتقل إلى جامعتكم اليوم.. أُدعى يوسف.

- أهلًا بك يا أستاذ (يوسف).

قالها (مالك)، وهو سعيد بشدة.. ليتابع أستاذنا الجديد قوله:

- أهلًا بك، وأهلًا بكم جميعًا.

ولكنه تابَعَ نظراته نحوي بينما أنا كنتُ أحاول أن أُخفي رأسي لكيلا يراني.. لم أعلم هل هو قد انتبه لي حقًّا وتصنَّع عدم رؤيته لي أم غير ذلك؟، وسرعان ما تفاعَل معه الطلاب وبدأ يشاركهم بإلقاء الأسئلة، وكنتُ أشعر بالخجل الشديد، لم أعلم، هل كان ذلك بسبب ما حدث بيننا في الطرقات؟أم لأن جميع الطلاب يشاركونه بالإجابات بصورة جيدة مما جعلني أُدرِك أني فاشلة تمامًا بينهما ..

ولم ألبث سوى لحظات حتى كان يُلقي إليَّ كل بضع دقائق بإحدى نظراته.. حينها فقط علمتُ إنه لا مفرَّ.. لم أذكر أني أمتلكُ الذكاء لأنه لم يكن لديَّ ألبتة أيُّ شيء منه، والدليل على ذلك ما حدث تاليًا

حين ألقى سؤالًا لأحد الطلاب.. فتعثّر الطالب في إجابته مما جعلني أضحك بدون قصد مني.. لقد كنتُ أعلم سابقًا أنه لا مفرَّ.. بل إنه سيضطهدني.. لِمَ فعلتُ أنا ذلك إذن؟ غير أني أمتلك من الغباء الكثير الآن قدمت له فرصة من ذهب ليقول ما يحلو له لي.. فسرعان ما اعتلى وجهه الغضبُ وبكلماته نحوي أيضًا

– أيوجد خطب ما معكِ؟.. ما المضحك؟.. أجل..أنتِ.

– لا شيء.

قلتها، وقد تملّكني الارتباك منه تمامًا.. ليتابع هو، وبدون تردُّد:

– فقط لأنك مُهملة بدراستك،وأنا متأكد إن قمتُ بسؤالك الآن فلن تستطيع مجاوبتي.. إذن لماذا تسخرين من زملائك؟ ..

قالها لي بغضب عارمٍ أفزعني نبرة صوته أكثر من تقليله لاحترامي أمام الجميع، ولم أستطع أن أنطق بأيِّ كلمة سوى كلمة واحدة:

– أنا أعتذر ..

– لا يوجد أحد في صفي يقوم بتعطيل الاستفادة على الآخرين.. فلتأخذي أشياءك، وتخرجى من صفي ..

لم أعارضه، وبباسطة أخذتُ أغراضي وتركتُ الصفَّ.. لم تكن أول مرة لي أن أُطرد من صفي، ولكن كانت أول مرة يحمرُّ وجهي خجلًا..تصرفي هذا جعل منه أيضًا أن يشعر بعد دقائق أنه تحامَلَ عليَّ،

وراودته أفكاره أنه كان عليه فقط أن يتقبل اعتذاري على ما حدث أثناء المحاضرة، ولكن كأنه كان يريد أن أعتذر منه، وأتأسف على ما بدر مني في الطُّرقات منذ قليل.. أما أنا ما إن تركت قاعة المحاضرات حتى بدأت أحدث نفسي بغضب..

- يسخر مني أنا،أمام الجميع هكذا.. لم يتبقَّ غير هذا الأستاذ الصغير يتخذني سخريةً أمام الجميع.

حتى أقدم على (علي)، و(رانيا)،وقد لاحظاني وأنا أتمتم بالكلمات بغضب.. لتضع (رانيا) يديها على ساعدي، وتقول:

- ما بكِ يا لينا؟

- لا شيء.. مجرد أستاذ أحمق.

- من هو ..؟

قالها (علي) بشغف.. مترقبًا مَن الذي قد حوَّل وجهي هكذا.. لأقول له وأنا أتلحن بالكلمات بسخرية.

- يوسف.. هكذا هو اسمه.. يوسف.. أستاذ جديد في كليتنا.

- إنه المُعقَّد نفسيًّا يا رانيا الذي أخبرتك عنه منذ قليل..

قالها (علي)، وهو غير متمالك نفسه من الضحك ساخرًا مني.. بينما أنا لم أتمالك نفسي من كثرة الاندهاش،وبغضب.. لتوجه (رانيا) حديثها نحوي:

– غير معقول.. أتشاجرتِ معه يا لينا؟

كانت كلمة (أتشاجرتِ معه يا لينا) كفيلة بأن تجعلني في عالم آخر إنهم يتحدثان عنه، وكأنهما يعرفانه بل تعاملا معه منذ الكثير من الزمن، وعندها لم أستطع الصمت أكثر الاستماع إلى حديث كل منهما إلى الآخر. وكأنهما يتخذانني ككرة ليلعبا بي.

– دقيقة واحدة.. أتحيطان علمًا به وأنا آخر من يعلم..

– منذ قليل أخبرتني ابنة خالتي.. ريتاج بأن أستاذًا جديدًا صارمًا قد أتى إلى كليتنا، وأن نتوخَّى الحذر منه لأنه لا يحب المزاح..

– ابنة خالتك التي هي بالصف الرابع.

– أجل ..

قالها (علي) بينما ضحكت (رانيا) لتتابع قولها له ساخرةً:

– انظر كيف سبقتْكَ دراسيًّا يا علي، وأنت أكبر منها بالعُمر!

– أتسخرين مني يا رانيا؟ نحن معًا في ذلك.. صحيح؟

حتى تابعت أنا قولًا، وقد تملّكتني السخرية أيضًا:

– صحيح.. من شدة حبنا بالجامعة ما زلنا عالقين بالصف الأول.

***

2

ظللتُ أنا وأصدقائي نسير في طرقات الكلية، لم يهدأ بالي بسبب ما حدث في تلك المحاضرة.. لقد جعل مني سخرية أمام الجميع، وبما أني عنيدة فلن أكتفي بذلك.. فكان عليَّ أن أقلب العالم رأسًا على عقب عليه، وأن أردَّ الصاع صاعين له.. حتى علمتُ من متابعتي لأخباره.. أنه كان متزوجًا فيما مضى، ولم ينجح زواجه فانفصل بعد عامين، ولم أستغرب ذلك.. مَن هي تلك الفتاة التي ستطيق أن تعيش معه وللأبد؟!

حتى جاء اليوم التالي، وعندما دخل صفه، وكان مقعدي فارغًا.. سرعان ما خالجه الشعور بالندم على ما قاله لي في الأمس.. فأنهى محاضرته، وظلّ يسير في أرجاء الكلية باحثًا عني حتى إنه قد ذهب إلى المكان السابق الذي رآني فيه أول مرة وأنا أدخن، ولكن لم يجدني هناك..

وما إن لاحظني أُدخِّنُ إحدى السجائر،وأنا جالسة بإحدى حدائق الكلية حتى تقدَّم إليَّ بخطواته، وعندها غمرني التوتر في بداية الأمر.. فاختلطَّ عليَّ المزيد من الأفكار.. ما الذي أتى به إلى هنا؟.. هل هو شعر بمدى مكري في أخذ حقي منه.. أم ماذا؟، ولكن سرعان ما اعتلتني الثقة بنفسي أمامه ليس قوة مني لأني كنت أضعف منه بكثير، وإنما كان بسبب علامات وجهه الذي غمرته السعادة.. فظلَّ واقفًا صامتًا.. بل أصبحنا صامتين لم أكن لأبدأ أنا الحديث، ولن أُكوّر أسفي منه.. فلقد فعلتُ سابقًا، وقام هو بعدها بطردي، هو من جاء، وهو إذا أراد شيئًا ليقوله.. فليقل.

– هل لي بالجلوس؟

– تفضل.. اعذرني لا أستطيع أن أدعوك للتدخين مرة أخرى فواضح أنك لا تدخن.

– كنت أدخن في صغري، ولكن ليس هذا.

كان ينظر إلى سيجارتي مستهزئًا بها، وهو يضحك أثناء قوله هذا.. لأتابع قولي له:

– هذا ما يجعلنا نعيش حياتنا بشكل جيد،بدون عوائق أو أحزان.

– أحزان؟.. أظنها كلمة كبيرة على فتاة صغيرة مثلك.. ماذا تعرفين عن هذه الكلمة؟..إذا كل شخص مر بحزن ما.. كان هذا هو الحل له لضاع كل شيء.

- لماذا؟

- لأنه في بعض الأحيان.. نحتاج الحزنَ ليكون سببًا لعدم الرجوع لفعل خطأ مرة أخرى.. أو أن نحرص على الاهتمام بالآخرين.. لأننا نعرف أنه سيأتي يوم ما، ويفارقوننا فيه.. فكيف في جعل حياتنا غير مبالية.. نعمة؟

أثناء حديثه أعترف.. فقد غلب عليَّ الشعور بعدم الفهم.. حاولت أفهم ماذا يقول عن الحزن والأخطاء، ولكن دون جدوى.. فتابعت حديثي له:

- كلام كبير، وفلسفة عميقة، ولكن من وجهة نظري أرى أن كل شخص عليه أن يشعر بالسعادة التامة.

- بالطبع .. على كل شخص أن يشعر بالسعادة.

قالها، وهو يضحك.. لينهض (يوسف) مكملًا كلامه لي:

- أظن أن عليَّ اللّحاق الآن بموعد محاضرتي التالية ..

- بالطبع.

- بإمكانك يا (لينا) متابعة محاضرتي القادمة إذا أردتِ.

اندهشت بقوله هذا.. ماذا يحاول أن يفعل؟.. هل هذا اعتذار منه لي.. لأتابع قولي له.

- ولكن كان يوجد شخص ما يسخر مني أمام الجميع.. فلِمَ آتي؟

- أعلم بأن بمقدورك الالتزام .. سأنتظرك.

تملّكني الاندهاش أكثر، ولكن ابتسمت بعدما تركني (يوسف) ومضى، وقد تبدَّل شعوري نحوه من ردِّ الصاع صاعين بسبب سخريته لي أمام الطلاب إلى شيء لا أعرفه.. كل ما عرفته في هذا اليوم أن هذا الشخص رأى فيَّ شيئًا لم أرَه بعد، لم يعرف عني شيئًا بعد ولكنه كان واثقًا أنس بمقدوري فعل الكثير.. كيف أتى بهذه الثقة؟ لستُ أعلم، ولِمَ هو مهتمٌّ إلى هذه الدرجة لكي أحضر محاضراته؟ لستُ أدري ..

عزمتُ على الذهاب فعلًا، والتزمتُ بحضوري لمحاضرته هو فقط، وبكل مرة كدتُ أن أسخر فيها من أحد في المحاضرة.. كنت أتمالك ذاتي، وهو أيضًا لم يكن غبيًّا فقد لاحظ ذلك عليَّ.. فكاد يبتسم بسببي، وفور انتهاء المحاضرة.. قام بنداء اسمي ..

- لينا.

فذهبت إليه بكل ثقة فتابع قوله:

- أودُّ أن أشكرك على الاستماع لي بمجيئك بالبداية، وحرصك على أن يستفيد الجميع.

- لا شكر على واجب، وأيضًا أودُّ أن أخبرك أني استفدتُ كثيرًا هذا اليوم.

- إذا أردتِ أن تعلمي الكثير عن شخصية اليوم الذي تناولناها.. فستجدين بالمكتبة هذا الكتاب، قد يفيدك كثيرًا.

فكتب لي اسم الكتاب في ورقة خارجية، وأعطاني إياها بينما أنا كنتُ مندهشة.. أردد هامسة محدثة نفسي بكلمتين وبصوت لا أكاد أسمعه أنا حتى:

- كتاب ومكتبة!

أدركتُ وقتها أنه حقًّا لا يعرفني جيدًا.. لأتابع قولي له:

- بالمكتبة.. أنا لست من هواة القراءة..

- إذن كيف ستكونين إعلامية ناجحة بدون أن تقرأي.

لأقول له ساخرة من كلماته.. حتى تملكني الضحك بشدة:

- إعلامية ناجحة؟ أظنه أملًا بعيدًا، ليس من طموحاتي المستقبلية.

- ولِمَ لا؟ ..

- لا أعلم ..

- مؤكد سيخسر الوسط الإعلامي شخصًا مثلك إن لم تسعي إليه.

- لِمَ أنت متأكد كثيرًا أني قد أُحدثُ فرقًا كبيرًا بالمجتمع؟ فلتعذرني أستاذي، ولكن.. أنت لا تعرف عني شيئًا.. أنا لا أعشق الدراسة، وأنا ما زلتُ بالصف الأول منذ أمدٍ.

– حقًا، ولِمَ أتيتِ إذن إلى محاضرتي؟

وضح عليَّ التوتر كثيرًا من هذا السؤال كأنه يحاصرني بأسئلته.. لم أعد أعرف بماذا أجاوبه؟.. أو ماذا أفعل؟..هل أقوم بضربه أم ماذا؟ أليس هو من طلب مني أن أحضر؟، ولكنه مُحقٌّ، لماذا إذن استمعت إلى كلامه وأتيتُ ما دمتُ لا أحبُّ الدراسة؟ إذا جاوبته بذلك سيظل يسألني بهذه الوتيرة السابقة، وعندها لم أجد منفذًا، ولم استعن بشيء آخر لأنفذ من هذا الوضع .. سوى الغرور.

– قد أصابني الملل بالبقاء في الحدائق، ولم أعلم إلى أين أذهب..

– هكذا إذن.

قالها، وهو يضحك ناظرًا لي وهو متيقن تمامًا بالسبب، وحتى وإن لم أنطق به .. لأتابع أنا حديثي:

– لن أنكر بأن طريقة إلقائك ممتازة فقد استمتعتُ كثيرًا.. على كل حال.. شكرًا لك.. فعليَّ الذهاب الآن.

أدرتُ ظهري له، ووددت لو أهرب من أمامه بسرعة.. فتابَعَ قوله لي بصوتٍ مرتفع:

– سأنتظر رأيك عن الكتاب الذي أشرت به إليكِ.

ما كان مني سوى أن أبتسم بتصنُّع.. لم يكن أي أحد بأفراد عائلتي ليتدخل في شئوني أبدًا حتى أبي وزوجته الجديدة فكانا

منهمكين بأعمالهما عني.. فقط زوجة خالي (ليلى) التي هي عميدة الكلية التي أنا بها.. هي من لم أستطع أن أرفض لها طلبًا بغالب الأحيان.. لِمَ هو إذن سأستمع لما يقوله أو أهتم له؟.. لستُ أدري، ولكن أعلم أني لن أخسر شيئًا.. الوقت لم يكن يمثل لي أي شيء.. إذا جرّبت شيئًا جديدًا ماذا عساني أن أفقدَ..

ظللتُ أفكّر طوال سيري في رُدهات المبنى حتى فرغ عقلي من التفكير فتوقفت، وإذ بي أراني توقّفتُ أمام المكتبة، وكأنه قدري.. طوال بقائي سنوات الأربع في هذه الكلية.. لم أرَ هذه المكتبة قط أو ألتفتُ إليها قط، وما إن مررتُ مِن بابها حتى أني شعرتُ بأني بعالمٍ آخر، وكأني بمكان مقدس يجب عليَّ أن أترك حذائي بالخارج.. ظللتُ أسير بها على غير هدًى أرى أعدادًا كبيرة من الكتب، أتهكم وأسخر بصوت منخفض على بعض الكتب وأسمائها وعلى أعدادها.. بحثت وبحثت ولم أجد هذا الكتاب المنشود.. شعرتُ أني بحلقة لم تكن لها نهاية، طلبت المساعدة من أحد الطلاب الذين يمتلكون إحدى النظارات الكبيرة واضح من هيئته أنه واقع في عِشق الكتب.. ممسكًا بأحد الكتب، وكأنه محبوبته يخاف أن أفلتها تتركه وتهرب.. هكذا شعرت نحوهِ، ظللنا نبحث أنا وهو، وظللت أسخر منه بصوت مسموع، وهو أيضًا سخر مني عندما قائلًا:

– هل أحد ترك لكِ بعضًا من المخدرات به؟

- أظن أنه خير لك أن تتابَع بحثك.

إنه على حقٍّ الجامعة بأكملها تعرفني.. فأنا مشهورة بما هو سيء، ولكن كان غريبًا ما أفعله.. أو كان غريبًا عليَّ،وأخيرًا وجده صاحب النظارات.. وجد كتابي المنشود.. فرحتُ كثيرًا، وبحالتي كأني وجدت علبة كبيرة مليئة بالمخدرات.

شكرت الطالب، وتركته لأذهب لاختصاصي المكتبة لأقوم باستعارته.. كان الكتاب كبيرًا جدًّا لدرجة أني لم أستطع أن أخبئه عن أصدقائي، وبرؤية (محمود) و(علي) و(رانيا) لي وأنا أحمله.. حتى لم يستطيعوا أن يُخفوا تهكمهم عليَّ بما أفعل،ولم أسلم منهم بسخريتهم.. فانتقدوا غيابي عنهم طيلة هذا الوقت بذهابي للمكتبة.

قررنا أن نتناول غداءنا في أحد المطاعم.. لم أهتم لقائمة الطعام كما كنت مهتمة بالكتاب الذي معي.. ظللت أقرأ فيه بشغف.. أذكر وقتها أن ما جعلني أتوقف بضع دقائق عن القراءة هو شغب شابٌّ وفتاة على طاولة أخرى أثناء تناولهما الطعام، وكأنهما يتسابقان بينما يشجعهما صديقان لهما.. حتى تناثر بعض من الطعام عليَّ..

قَدِمَ الشاب معتذرًا لي حتى نظرتُ له مندهشة بضع دقائق وهو يعتذر.. فكان (مالك).. قمتُ بتحريك رأسي له كأن شيئًا لم يحدث.. بينما الفتاة كان يبدو على وجهها من بعيد مظاهر الأسف والخجل، ولكن سرعان ما رددت في خوف بصورة غير ملحوظة (علي)..

ازداد تعلقي بقراءة هذا الكتاب..كان معي في كل مكان، أنهيتُه خلال ثلاثة أيام،وبموعد محاضرة أستاذي الجديد القادمة فلن أتخلّى عن حضورها، وعندما حان وقتُها ذهبتُ أنا وأصدقائي لنحضرها.. لم يكن يتملكهم الشغف بحضورها كما كان يتملكني، وما إن جلستُ على مقعدي بمحاضرته حتى هكّم بمجرد حضوره عليَّ إذا كنتُ قد مللتُ أيضًا الحدائق اليوم لأحضر محاضرته،ولكن تنفّست الصعداء، ونظرتُ له بمكر، لم أخبره بعد أني قرأتُ الكتاب، وأظن أنه قد شعر أني غير مبالية بكلامه، أكمل شرحه للشخصية التي أحطتُ علمًا بتفاصيلها سابقًا من هذا الكتاب حتى عارضته بأحد المواقف بها.. فابتسم بدهشة ليعمه الفخر، وإذا به مجّد بي أمام الجميع..أني استبقتُ القراءة عن هذه الشخصية.. صفّق لي الجميع على هذه المبادرة حتى أصدقائي كانوا معي نظروا إليَّ في دهشة، لم أكن أتخيل كل ذلك، ولم أشعر بهذا المجد أو بتصفيقهم بل شعرتُ بأكثر من ذلك، شعرتُ بأنه كأن يحاول أن يجعلني متميزة بعد أن سخر مني أمام الجميع في السابق.. كأنه يعتذر عمَّا بدرَ منه سابقًا بهذه الطريقة مما جعلني أنظر له، وأنا أبتسم له بهدوء، وبنظرات تكاد تقول له.. لقد جعلت ما يحدث لي نادرًا يحدثُ الآن لقد جعلتني أبتسم حقًّا من أعماق قلبي.

لماذا هو إذن يفكر بي كثيرًا هكذا؟.. هذا ما أظنه، الكثير من الأساتذة إذا سخروا من تلاميذهم.. لا يعطون اهتمامًا بشعورهم أو أن يحضروا محاضرهم التالية أم لا لِمَ هو إذن يفعل هذا معي؟..

مرّتْ الأيام، ويوم يليه يوم آخر، واستطعتُ أن ألتزم ليس بمحاضرته هو فقط وإنما بباقي الأساتذة، ولن أنكر أن أستاذي الجديد ساعدني كثيرًا على الحضور وعلى تحصيل دروسي أيضًا، وأصبح الذهاب إلى المكتبة خلال اليوم أمرًا لا بد منه، ولم تخلُ أحاديثي معه هناك همسات مضحكة أحيانًا ومراوغة أحيانًا أخرى.. فما زال ذلك الحديث في ثنايا قلبي قابعًا ما حييت حينما قلتُ له:

– لما أنا؟

– أنتَ ماذا؟

– تهتم بي كثيرًا، ولا تقل ليس كذلك أنت تقريبًا مُسخِّر يومك هنا بشكل كامل معي .. لِمَ؟

– قريبًا ستعلمين ..

من أجمل الأشياء.. قضاء الوقت مع شخص يتحدث ببراءة، ويضحك بطريقة تشعر بها أن أوجاع الحياة انتهت.

أصبح أستاذي الجديد يحاول أن يجعل مني أن أقتلع عن المخدرات رويدًا رويدًا.. إما أن يأخذ مني علبة السجائر أو بعضًا من المخدرات التي بحوزتي، وبوجوده معي أصبحت أزداد إعجابًا به، وكما أن

قطرات المطر في ذلك الوقت لها تأثيرها الخاص على الأحبة فأصبحت أراه بعيني وقلبي،وما دمتُ معه..فلم يعد أيُّ شيء يفرق معي، كنت أشعر أن فصل الشتاء مثلي يحمل كل المتناقضات معه، كلما مرّت الأيام شعرت أن علاقتنا تعدّت من كون أستاذ وطالبة.. لم أعرف شعوره بعد، ولكن هذا كان من جانبي أنا..

أردته أن ينتشلني مما أنا فيه من ضياع، أردت شخصًا مثله.. بشخصيته القوية ذات الإرادة والعزم.. أحببتُ المستقبل الذي رسمه لي، وبدأت أتخيله جميلًا كثيرًا معه..

وبالرغم أنه كان يتدخل بشئوني كثيرًا.. فلم أستطع أن أمنعه.. مثل زوجة خالي تمامًا لأني أعلم أنه لا يريد لي أن أُصابَ بأذًى.. لم أكن أنوي التعلُّق به، ولكن بقدر من الله أتى وجعل الحياة أجمل، فأصبحت أُحصِّل دروسي شيئًا فشيئًا.. بعقلي أبحرت معه فأصبح لي حياة، والحياة كلها أصبحت هو، ولكن المخدرات لم أستطع بعد أن أُقلِعَ عنها تمامًا..

فكان أكبر نضال خلال يومي هو أن أنظر إلى سيجارة المخدرات، وأتنهد أمامها بالساعات.. هل أذعن لها أم أتركها لأقوم بإتلافها بالآخر وأرمي بها في صندوق المهملات، ومن عشر محاولات عن الإقلاع عن المخدرات بيني وبين ذاتي أنجح في ثماني وأضعفُ أمام محاولتين لأعلم في قرارة نفسي.. إنها معشوقتي، وإنها لن تتركني أمضي بمفردي بسلام.. مثل علاقة ذاك الطالب ذي النظارات بكتبه.. فأنا

وهو أصبحنا متشابهين.. تتحكم فينا الأشياء، وإن كان هو لن يضره هذا بشيء بل سيزداد قيمة..

على عكسي أنا.. فكانت المخدرات تأخذني للضياع.

***

3

ذات صباح أخبرنا (مالك) في قاعة المحاضرات إنه توجد حفلة كبيرة ستُقام وسينشر موسيقاه في هذه الحفلة.. سعدت لسماعي ذلك، وعزمتُ على إخبار أستاذي الجديد ليس فقط بذهابي وإنما لكي يأتي هو أيضًا .. وعندما سنحت لي الفرصة .. تحدثت معه:

– توجد حفلة كبيرة ستقام بعد أسبوعين.. هل ستأتي؟

– قد أخبرني (مالك) و(ريتاج) بها صباحًا، ولكن أظن أن ليس بمقدوري الذهاب. وأنتِ.. أليس أمامك الكثير لتدرسيه؟

– إنها حفلة كبيرة أرجوك ..

– حسنًا.. سنذهب إذا أثبتِ لي شيئين.. أولًا إن حصلت في الامتحان التجريبي على علامة امتياز.

– حسنًا، والثانية؟

قلتها، وأنا أفقد الأمل متشبثة بالشرط الثاني علّني أستطيع فعله.

- والثاني ألّا تتعاطي شيئًا مطلقًا خلال الأسبوعين القادمين..

حتى أسرعتُ بالرد عليه:

- حسنًا.. حسنًا.. أظن أني سأتنازل عن فكرة ذهابي أفضل.

مرّت الأيام، لم أناضل من أجل ذهابي للحفلة بجد، ولكن ظللت أستذكر دروسي، وظلت محاولتي مع تعاطي المُخدرات تقلُّ شيئًا فشيئًا ولم أعد أرى أصدقائي كالسابق.. لقد بتُّ شخصًا آخر على غير تلك الفتاة التي عهدتها سابقًا، والصاعقة التي انتابتني أني حصلت على علامة جيد جدًا في بعض الامتحانات التجريبية.. سعدت زوجة خالي كثيرً، ورأت في أستاذي، يوسف هو مُنقذي حقًا من هلاكي، ولكن أنا كنت أراه شخصًا آخر.. فأصبحت عمياء لا أبصر إلا به، رأيته حبيبي الأبدي وما زلت أراه هكذا إلى الآن..

ولك أن تراه وهو يخبرني كم هو فخور بي بعلامتي في الامتحانات، ومحاولاتي في الابتعاد عن المخدرات.. فنظرت إلى عينيه، وكأن نظراته لي جائزتي الحقيقية.. كم كنت أشعر أني أحتلُّ بقلبه مكانة كبيرة.. فتجعلني أثق بذاتي وتعطيني المزيد من الأمان..

- لقد أثبتِ لي أنكِ ستصبحين ذات مكانةٍ مهمة كما أخبرتك.

فقلت له وأنا سعيدة جدًا:

- وأنا أثق بكلامك..

- جيد، وكما يقول المثل لكل مجتهدٍ نصيب.

- ما هذا؟

- كنت قد اشتريتها من عدة أسابيع لكِ منتظرًا أن تحققي إحدى ما طلبته منكِ، وبما أنكِ حققت الأول، وبذلت جهدًا في تحقيق الآخر فإنكِ تستحقينها.

فقلت له، وأنا يغمرني الشعور بالسعادة والدهشة:

- إنه عقد.. يحتوي على فَراشةٍ.. رقيق جدًّا..

- أرى إنكِ أحببته.

- طبعًا.. شكرًا لك.

- ماذا؟ ألسنا صديقين؟

- بلى.

- في قواعد الصداقة لا توجد كلمتان.. شكرًا لك، وأنا أسف.

فقلتُ له وأنا أبتسم:

- صحيح.. إذن أسنذهب إلى الحفلة؟

- بالطبع.

كنتُ أنتظر منه أن يعترف لي بذلك صراحة.. بحبه لي، لا أنكر أن لغروري وإدماني للمخدرات دور كبير في عدم اعترافي له بذلك، وأيضًا كنتُ أخشى إذا تسرعتُ وأخبرته بما أشعر به تجاهه حقًا أن أكون قد أسأت فهم مشاعره تجاهي، وتوهّمت حبًّا لم يكن موجودًا كما أتخيَّل فأفقده، وأنا لم أرد أن أفقده ..

كم تمنيتُ أن يقطع عليَّ حيرتي ويُخبرني هو بما يشعر به تجاهي سريعًا قبل أن أُصابَ بالجنون.

مرّت بضعة أيام، وجاء يوم إقامة الحفلة الموعودة، وبحلول الليل كان الحضور كبيرًا.. جميع الطلاب كانوا موجودين في تلك الحفلة.. حتى أشتد انتباه (يوسف) لي عندما تخطيت باب القاعة فنظر لي بابتسامة بالغة، وكأني أنا أميرته.. فخطا نحوي بضع خطوات..

– أرى إحدى الحوريات قادمة من الجنة.

فقلت له، ووجهي يغمره الابتسامة:

– مجاملة كبيرة .. شكرًا لك.

– من أستاذ مغرور مثلي.. أعتقد أنها ليست سوى الحقيقة، ولا أستطيع إنكارها.

– حقًا.

– أتشكين في هذا؟ ألا ترين هذا في عيني؟

كانت تلك فرصة وقد أتت إليّ لأنظر إلى عينيه بتأمُّل بدون أن أعطيه أيَّ عذرٍ.. فانتبهت بشدة لعينيه، وتفحصتهما في دهشة حتى تابعت قولي له:

– في هاتين العينين.. لا أرى سوى شيء واحد.. الخوف.

– الخوف .. ممَّ؟!

– من الناس.

– من الناس.. لماذا؟

– أترى هناك؟ إنهم يلقون بكل أعبائهم ولا يهتمون بأحد.

– لينا.. هؤلاء شباب يرقصون.

– أجل.. من الممكن يخافون من أشياء أخرى، ولكن أنت تخشى نظرة الناس.

– ماذا؟

قالها لي، وهو يبتسم لي بسخرية منكرًا ما أخبرته به حتى تابعت قولي:

– أجل هذا صحيح.. أتستطيع أن تشاركهم؟

– بالطبع لا.

– كما أخبرتك منذ قليل.. أنت خائف على مكانتك.

قلتُها، وأنا أستزيد بالضحك منه.. ليتابع هو حديثه في عجلة ردًّا عليَّ:

– طبعًا.. أقصد لا.. آه منك ..

– هيا فلنقم بذلك.

– ليس لي في ذلك يا لينا ..

– حسنًا سأذهب أنا ..

كان الحضور كبيرًا على مشاهدة الراقصين الاستعراضيين، ومن بين الحضور أنا و(يوسف)، وسرعان ما قمت بمشاركة الراقصين بالرقص الاستعراضي حتى المحيطون بي من المشاركين تنازلوا عن رقصاتهم لكي يروا إجادتي الرقصَ الاستعراضي.. أما هو فكان ينظر لي بنظرة اندهاش يعمها السعادة، والاستغراب، وأنا أتابعه بنظراتي إليه، وأحرك وجهي كإشارة له.. بأنه خائف.

وسرعان ما شاركني واحد تلو الآخر في رقصاتي .. حتى أثبت (يوسف) تحديه لي بأنه ليس خائفًا من طلابه ولا من أي أحد كما زعمت له .. فشاركني بالرقص بالأخير، ولكن هذا التحدي انقلبَ بيننا في تلك اللحظات إلى تبادل نظرات، ووضح في عينيه أيضًا نظرات عميقة بما يحمله في قلبه تجاهي.. إلى أن انتهت رقصتُنا.. ليقول لي:

– أما زلتُ جبانًا ..

– لقد فُقتَ كل توقعاتي ..

– أعترف.. بأن لحظة الشجاعة هذه لن تدوم طويلًا ..

– حقًا.

قلتها وأنا أضحك، وهو أيضًا كانت الابتسامة تغمر وجهه حتى قالها لي أخيرًا:

– أنا أحبك لينا.. فإن قلبي ينبض من أجلك ..

– ماذا؟

قلتُها باندهاش.. كم كنتُ أودُّ سماع ذلك، ولكن سماع هذه الكلمة بنبرة صوته امتزجَ بنفسي شعور مخيف..أجل أحببته، وشعرت بين الحين والآخر بحبه لي.. فمعاملته لي لم تكن معاملة أستاذٍ لتلميذته، وإنما أبعد من ذلك.. ذلك الحرص على مستقبلي وخاصة من غريب لم يكن سوى من شخص يهتم بي حقًا ..

هذه الكلمة التي ظلّ يرجوها قلبي، ولكن بقايا عقلي يرفضها بسبب ما أنا عليه.. والدي أعطاني كل أنواع الحريات، ولكن أنا لست بأنانية، أعلم عن أمور الحب ولكن فقط من خلال الروايات الرومانسية ولم يكن واقعًا ملموسًا لي، أمي قد تزوجت بأبي زواجًا تقليديًّا، وأيضًا خالي قد تزوج هكذا.. حتى زواج أبي الحالي لم يكن

مُقامًا على أساس العِشق، وإنما على أساس زيادة حجم أعماله، والشركات التي يمتلكها هو وزوجته الجديدة باندماج أعمالهما معًا فهو زواج مقام على أساس المصلحة أولًا وأخيرًا، وبذلك لم أنتظر من زوجة أبي أي حُبٍّ قد تعطيني إياه..

عندما التمستُ حبَّ (يوسف) إليَّ شعرتٌ أني أمتلك العالم من جديد بعد فقدان أمي، ظلّت هذه الأفكار تحارب بعضها بعضًا خلال حديثي مع (يوسف).. فالآن أصبح حبُّه لي واقعًا ملموسًا، شعر هو بشرود ذهني.. ليؤكد كلمته ومستزيدًا بما فاق توقُّعي وما لم يخطر لي على بال.

– أحبك لينا، وأريد أن أتزوج بكِ.

– ماذا؟.. أنت مؤكد لا تعني ما تقول.

لماذا قلتُ أنا ذلك؟.. لستُ أعلم، لستُ أعلم ماذا أريدُ حقًّا.. في السابق كنت أريد أن يقطع عليَّ حيرتي ويخبرني إن كان يُحبني أم لا، ولكن لِمَ الآن انتابتني أفكار جديدة كعواقب بيننا، ولكن ليست أفكاري هي العواقب فحسب، وإنما ما أنا عليه..

قد يعشقني (يوسف) مثلما أعشقه، ولكن أن أتزوج به.. هل أنا سأصلح أن أكون زوجة له؟، أُمًّا لأبنائه في المستقبل؟، هل ستكون فتاة بلا مستقبل قادرة على أن تبنى مستقبلًا لغيرها؟ كيف؟.. لطالما كانت هذه الفكرة تحوم حول قلبي لتصدَّه لكيلا يتعلق كثيرًا بـــ

(يوسف) أو أي شخص آخر ذي مكانة مهمة مما جعلني مُرتبكةً أثناء سماعي تلك الكلمة فلم يبدر مني إلا النظرات الحزينة تلك النظرات التي لا يعرفها هو عني بعد.. ليتابع قوله لي

– لماذا إذن ..؟

– أنت لا تدرك شيئًا.. أنت تنعم بحياة رائعة ومستقبل باهر إنما أنا.. فــ..

– وأنتِ أيضًا ستنعمين بحياة رائعة معي، ومستقبلك أيضًا سيصبح جميلًا.

– لا تحلم كثيرًا يا يوسف.. لا أضمن ماذا سيكون مستقبلي؟، ولا أضمن أني سأظلُّ متماسكةً ضد إدماني فترةً طويلة.

– لذا فلتجعليني بجانبك من أجلك ومن أجل حبي لكِ.. لينا.. أعلم أنكِ تبادلينني شعوري أيضًا.. أنا لستُ غبيًّا.. لينا.. مَن الجبان الآن؟..

لم أتمالك ذاتي حتى بدأت بالبكاء بشدة، وعقلي أصبح كبركان ثائر يريد أن يطيح بقلبي.. كنتُ محتارة أن أخبره سابقًا بحبي أم لا لكيلا أفقده؟ ولكن لم أدرك أن حيرتي ستزداد عندما يعترف بحبه لي، وإرادته بالزواج مني.. حيرة بين حبي له وخوفي عليه لما أنا عليه..

أي فتاة في جامعتنا أو في العالم تتمنى أن ترتبط بشخص مثله، وإن كان يغمرها بهذا الحب الذي يفدق به عليَّ ستكون الأكثر حظًّا.. لِمَ أوقعني في هذه الحيرة؟ كنت راضية بعشقي له سِرًّا ومن جانب واحد في بعض اللحظات، ولم أسعَ من أجله مثل الفتيات الأخريات.. لماذا إذن؟ ..

– لينا..

– أجل يوسف أنا جبانة لأني إذا قلتُها لك سأصبح أنانية.. سأكون عقبة في طريقك.. أنت فقط عشقتَ فيَّ عاداتي السيئة قبل الحسنة، ولكن هذا لا يبنى بيتًا، ولا مستقبلًا.

صمت (يوسف) قليلًا.. لأتابع قولي في ثقة:

– أترى.. هذا هو المنطق يا أستاذي العزيز.. العشق وحده لا يبني مُستقبلًا ..

***

4

تركته إثرَ تلك الكلمات، ورحلتُ إلى منزلي.. لم أستطع أن أنام تلك الليلة جيدًا، ووضح عليَّ الإرهاق، والحزن بمجيء اليوم التالي، ومن حُسن حظي أن هذا اليوم ممنوح للجامعة إجازةً.. فحسمت قراري بأني سأتابع من الغد دروسي، وكأني لم أسمع شيئًا من (يوسف)

أحبُّه أعلمُ، ولكن لم أُرِدْ أن أضعف.. لم أُرِدْ لأني لو فعلتُ فعليَّ أن أتخلى عن معشوقي الآخر،ولن أستطيع أن أتخلى عن إدماني.. أعلم أني بـــ (يوسف) أستطيع محاربة إدماني، ولكن ماذا إذا فشلت ذات مرة؟.. ماذا إذن؟.. من المؤكد سيتخلى هو عني إذا سئم مني، وسيُجرح قلبي حينها،وقد أعود لسابق عهدي مرة أخرى، وقد يكون أسوأ، وأنا لا أريد ذلك ..

إذا وليت لقلبي زمام أمري.. فقريبًا لن ألوم غير ذاتي.. ففضلتُ أن أكون حيادية بين قلبي وعقلي حتى مَرَّ هذا اليوم على هذا المنوال من التفكير، وعلى هذا القرار ..

وبمجيء صباح اليوم التالي له.. آثرت أن أذهب إلى الجامعة باللون الزهري.. أعلم كم يحب (يوسف) هذا اللون عليَّ! متأنقة، وأنا أتصنَّع الفرحة، وتردّدت في وضع العقد الذي أعطاني إياه هديةً.. حتى سلمت بتركه في حافظته، ومضيتُ..

ما إن وصلت إلى الجامعة فشعرت بشيء غريب.. شوارع كليتي تكاد تكون فارغة من الطلاب، وما إن فتحت باب المبنى الدراسي حتى تفاجأت بما أرى.. فقد انهالت عليَّ البالونات، والزينة من كل مكان.. فكل الطلاب كانوا موجودين، ومعهم (يوسف) أيضًا.. ليتقدم نحوي ويجثو، على ركبته أمامي، وأمام الجميع:

– هل تتزوجينني لينا؟

ولكني لم أستطع الرد بالموافقة أو الرفض.. ما زلتُ متفاجئةً مما أرى، وكأنني لم أفكر أو أعزم على شيء البارحة، وكدت أبكي، وسرعان ما طغت قوة مشاعري، وحبي على قراري الحاسم اليوم الماضي إثر رؤية عيني (يوسف)، وأيضًا بتشجيع الجميع لي على الموافقة.. حتى زوجة خالي التي باتت فرحة بشدة، وعندما تابعتها بنظراتي حتى ارتسمَ على وجهي الابتسامة أيضًا، وقد تملّكني الاستسلام.. لقد انتصر قلبي على ما يريده عقلي..

إنها ليست أول مرة.. فكم مرة هُزمت نفسي، وإرادتي بأن أُقلِع عن المخدرات، وها هو عقلي قد هُزم مرة أخرى أمام استعطاف وجه (يوسف) لي.

- هيا وافقي..

قالها الجميع لي.. لأقول لـــ (يوسف) ووجهي يغمره الابتسامة:

- أجل.. أوافق.

قلبه وطن.. ليتسع لي بكل ما أحمله من عيوب، وبنهاية الأسبوع كانت حفلة خِطبتنا، وأصبحت مُلتزمة أمام (يوسف) بوعدي له بتركي للمخدرات للأبد.. كنت بصراع يوميًّا.. بيني،وبين هذه المواد العفنة، وكنتُ أنتصر عليها بسبب دعمه لي، ولكن ما إن سمعت إحدى الطالبات تنتقدني سرًّا بأني لا أستحقُّ (يوسف)، وآخرون ازدادوا سخرية من وراء ظهر (يوسف) بأني اشتريتُه بمالي، وآخرون قالوا وما أكثرهم من وراء ظهري أيضًا .. ما هو إلا أستاذٌ ماكر.. ماذا يريد الشخص من فتاة ليس لها مستقبل سوى أن يحصل على بعض النفوذ من والدها؟! لم أتمالك ذاتي أمام تلك الشائعات والكلام الخبيث فكانت تُعكّر صفو حياتي بل حياته هو أيضا سرًّا..

أصبحتُ أدرك الآن لا مفر من ماضيَّ، ولا مفر من أيامي السابقة التي عهدتها بشخصيتي السيئة، وكما قلت سابقًا لـــ (يوسف) بأول لقاء جمعنا معًا إن هذه المواد ما هي إلا وسيلة تجعلنا سُعداء بهذه الحياة.. ربما للضعفاء مثلي.. فتكون حجتي.. فتكون مهربي من كل شيء.. فوجدت بها السلوان لما كنتُ أسعى إليه،ووجدت بها خلاصي بالهرب مما أفكر به بسبب أحاديثهم لأبتعد بفكري عن هؤلاء

الشياطين الذين يعكرون صفو حياتي، وكم مرة وددتُ أن أعترف له بنكثي لوعدي له! وكم مرة وددت أن أقول له: لا تتوقع مني الكثير، ولا ترفع سقف معنوياتك بي، لا تجعلني الفضلى على الجميع.. ربما لا أستحقُّ.. أنت بذلك ستضعني في معاناة في كل موقفٍ وفي كل لحظة، بل في كل نفس أستنشقه .. لكي لا أخذلك .. ربما عندما تعتقد أني عادية .. سأفرح كثيرًا عندما أحقق شيئًا ما أعلى مما تتوقع .. أظنُّ ذلك.

بعد مرور أسبوع تقريبًا على عودتي للمخدرات ثانية.. أصبح اليوم التالي هو أسوأ أيام حياتي بعد ممات والدتي.. لم أعهد مثله قط.. حينما سمع (يوسف) من أحد الطلاب، وهم يتحدثون، وفي طيات كلامهم أني ما زالتُ أتعاطى المخدرات.. فإذا به استشاطَ غضبًا بحثًا عني لكي يُكذِّب ما سمعه.. حتى وجدني في حمام الفتيات أتعاطى المخدرات فعلًا.

خرجت الفتيات كلهن وما بقيَ إلا أنا وهو.. حتى رجعت بخطواتي للوراء بخوف وهلع بسبب نكثي بوعدي له.. فاقتربَ مني ليأخذ المخدرات من يدي:

– كل هذه المدة وأنتِ تكذبين عليَّ.. أعطيني حقيبتك..

– ليس بداخلها شيء.

قلتها، و أنا أبكي، ولِمَ لا؟ فلم يعد يفيد الكلام الآن.

- لا تكذبي.

فتابعت قولي له بصوت مرتجفٍ ومتوتر:

- ليس معي شيء.

- إن شاء الله يصبح كلامك صحيحًا.. لأني أقسم إذا تبيّن العكس فلا أعلم ماذا سأفعل؟

فظللتُ أُردّد له وأنا أبكي:

- ليس معي شيء.

أخذ (يوسف) مني الحقيبة ليفتشها وهو يردد:

- لم أعد أصدق أي شيء.

لم أكن لأكذب عليه قط.. فقط تلك العادة التي أصبحت أكثر حتى من شهيقي وزفيري لكي أعيش هي من جعلت حياتي هكذا.. فلم استطع تركها لأنها تمكنت مني.. تمكنت مني، ودون رجعة.

وما كان منه إلا أن تركني بعد عدة ثوانٍ وعيناه تدمعان.. تملؤهما نظرات خيبة الأمل، والضياع.. سقطتُ حينها أنا أرضًا لأبكي بمفردي، وبشدة لأنه رآني هكذا.. كما كنتُ لا أرجو.

لم تستطع قدماي بسبب الخجل،والخوف مما فعلت أن تذهبا إليه.. وما إن نهضتُ حتى حاولت أن أجده، ولكن بدون فائدة.. فلم أعثر

عليه، وبعد عدة ساعات ذهبتُ إلى منزله.. أردتُ أن أعتذر منه، وما إن وصلت،وأدخلني الخادم إلى منزله حتى رأيت أوراقًا صغيرة بكثرة، وسجائر، ورائحة الدخان تملأ المكان..

كل مشاعري كان يتملكها الأسف، ولكن شعرت بخوف شديد من كمية هذا الدخان، وأعداد هذه السجائر.. لقد كان غريبًا عليَّ أن أراه يدخن.. إنه قد أخبرني في السابق أنه لم يعد يدخن منذ أن كان في صغره.. لأحدثه برهبةٍ مما يحدث محاولة التأسُّف له:

– يوسف..أريد لو أن تعطيني فرصةً.. فقط مرة واحدة.. أنا مثل الطير الغارق.

التفتَ إليّ (يوسف)،وابتسم حتى تابعت التقدُّم نحوه، وكنت أخشى ما يدور في ذهني، ولكنه هو ظل يبتسم.. فتابعت قولي:

– ما هذا يوسف؟

– ظللتُ أحدثكِ عن الإرادة، وكنتُ أنانيًا لأجعل منك فتاة مثالية مثلما أتخيليها في أحلامي.. لا أستطيع أن أراكِ تنهارين أمامي لينا.

فتابعت قولي له، وقد تملّكني البكاء:

– أرجوك.. ماذا تفعل؟

- ما معنى حبي لكِ إن لم أشاركك أحزانك، وعيوبك؟لا يوجد أمامي حل آخر لأثبت لكِ.. أن بإرادة الشخص فقط يستطيع أن يُقلع عن هذا ..

تابعت قولي، وأنا أخشى ما أفكر به أن يكون صحيحًا:

- ما الذي تفعله؟.. هل أنت غبي.. لماذا؟

- لأني أحبُّك

- إذن لماذا تحبني لهذه الدرجة؟.. لماذا؟

- لا تحزني هكذا حبيبتي.. قريبًا ستُقلعين عن هذا، وسيكون ورقة خاسرة في ماضيكِ.

غمرت الدموع وجهي.. لأتابع حديثي معه مكررة حديثي بدون وعي:

- لماذا تحبني إذن لهذه الدرجة؟.. لماذا؟

مرّ هذا اليوم كغصة علينا نحن الاثنين.. لتتبعها أيام أكثرها سوادًا بمشاركة (يوسف) لي في إدماني. كانت ثقتي بـــ (يوسف) كبيرة، ولكن لم أكن أثق بها.. لم أثق بالمخدرات.

لكن ما إن مرت الأيام.. فلم يعد هو حتى يدرك عن ذاته شيئًا.. لقد كان وضعه يزداد سوءًا عني.. فنسى وعده لي، وقدرته على التحكم في ذاته بإرادته، وتبدَّل الوضع معه من وسيلة إلى غاية..

حتى أصبح هَمُّه الأول هو الحصول على جرعته، وتحوّل هو حينها من شخص أدمن ليُنقذني.. إلى شخص يُسيطر عليه الإدمانُ بالكامل..

بمرور الوقت وبكل دقاته التي تمر.. كانت تمتزج بيننا المشكلات.. حينها تمنيتُ لو كان هو غريبًا يصطدم كتفه بكتفي.. لأعتذر منه، ويمضي كلٌّ منا في طريقه، ويا ليت الزمن يعود للوراء لأتحاشاه! لكيلا يصير معه أبشع مما يصير معي ..

أصبح عصبيًّا لكي يحصل هو على بعض المواد المخدرة مني.. إن رفضتُ يأخذها مني عنوة، وتارات أخرى بالسرقة من حقيبتي حتى في إحدى المرات التي كان يفتش فيها عن المخدرات في حقيبتي ظل مردّدًا بصورة عصبية وكأنه جُنَّ تمامًا:

– أين هي؟ ..

– تخلصت منها.

– هيا أحضريها.. أريدها الآن.. لا تكذبي.

فتابعت قولي، وأنا أبكي له.

– لماذا لا تتركني؟.. فأنا لم أعد أعلم من أنت، لم أعد أتحمَّل.

وما إن هممتُ بالذهاب فإذا به يمسك يدي ليوقفني متذلّلًا لي، وكأنه يأمل أن أقوم أنا بإنقاذه مما هو فيه لأتابع قولي له:

– أريد أن أذهب.. لا أريد أن أظل معك.

- أنا أصبحت الآن مثلك.. لقد كنتِ مثلي وأنا اخترتك، والآن أنا أحتاجك بجانبي.

- لم أعد أعرف شيئًا.. كنتُ أريد من يوسف أن يساعدني لا أن يصبح مثلي.

- أنا خسرتُ حياتي من أجلك أنتِ.

- إذن ابقَ لكي تخسر حياتك كلها ..

- أرجوكِ.. ابقي معي.

- لن أستطيع أن أكون بجانبك، وأشاهدك تنهار أمامي.. لن أستطيع.. فقط برحيلي ربما سيأتي شخص يساعدك حقًا.

- الكل تركني ولم يبقَ لي أحد.. فقط أنتِ من تبقّى لي.

***

5

وبالرغم من أني السبب وراء ضياع (يوسف) وما زلتُ.. الآن أصبح هو نقطة ضعفي، ظللت معه بضعة أيام أخرى.. بينما (علي) و(محمود) و(رانيا) أصبحوا يُشفقون عليه بسبب عدم استطاعته للتدريس بسبب ما أمسى عليه.. فلقد أصبح عصبيًّا، ويداه لم تكفا عن الارتعاش إلى أن قررتُ أن أتركه فعلًا، وبدون علمه وبدون تردد فكفى ما أحدثته به بسبب أنانيتي المفرطة.. كفى ما سببتُه له من أذًى ليس هذا هو جزاؤه لأنه أراد لي مستقبلًا أفضل بأن أدمر مُستقبله هو كان عليّ أن أتركه منذ أمد، وكان عليَّ أن أتخلى عن هذا الحب.. لقد أحبَّني أكثر مما ينبغي لي إلى أن ضاع هو..

كان قراري حاسمًا، ولأول مرة في حياتي..فلقد قمتُ بتركه بالفعل..تركت كل شيء ومضيت.. ذهبت إلى حيث لا يعلم أحد بمكاني.

تدهور حال (يوسف) أكثر بمرور شهرين،ولم يعد معه المال الكافي ليشتري بعض المواد المخدرة، وأصبح يبحث عني بكل مكان لعله يجد معي ما يبحث عنه.. ذهب إلى منزل والدي، وأيضًا زوجة خالي، ولكن بدون فائدة ..

ذهب (يوسف) إلى الجامعة ليلتقي بزوجة خالي.. ليتحدّث معها ليس بوصفها زوجة خالي، وإنما بصفتها عميدة الكلية ورئيسته أيضًا بالعمل بعد انقطاعه عن مزاولة التدريس بهذا الوضع .. ليقدم على سلفة من إدارة الجامعة ليشتري على أثرها المخدرات، ولكن زوجة خالي (ليلى) ظلت تعامله بريبة، وتعاسة بسبب ما حدث له..

– صباح الخير يا أستاذة.

– صباح النور يا يوسف.. كيف حالك؟

– الحمد لله.. بخير ..

قالها، وكأنه يضحك بعد مئة عام من الكآبة التي تملكته.. سخرية مما يقوله وهو ليس عليه.

– اعذرني يوسف .. ولكني لستُ أرى ذلك .. حالك يا بني تدهور كثيرًا .. لم تعد .. يوسف .. الذي نعرفه.

– أشياء كثيرة تغيرت ..

- أجل .. أرى أنك منهمك كثيرًا .. ومتعب .. لذا هيئة الإدارة بالجامعة .. أصدرت قرارًا بشأنك.

- وما هو إذن؟ ..

قالها بسخرية متعجبًا من حديثها .. لتتابع هي:

- إجازة مفتوحة لحين عودتك لنا سالمًا ... وسيتم تفعيل القرار بمجرد توقيعك عليه ..

- ماذا؟ .. لماذا؟ .. أنا فقط مُتعب بعض الشيء .. وسأكون بخير .. قريبًا

- ليس واضحًا ذلك يا يوسف ..

- أنت .. أنتِ لست تفهمين شيئًا .. ولن تفهمي .. كيف لكم أن تفعلوا هذا بي؟ ..

انهار (يوسف) بل تطاوَلَ بالكلام معها بما لا يُحمد .. فقامت زوجة خالي بطرده من مكتبها بعد أن استدعت حرس الكلية.

ظلّ (يوسف) يتجول في الشوارع .. وقد قرَّر أن منفذه الوحيد هو بيع سيارته .. لم تكن جيدة بما يكفي لتجلب له الكثير من المال ولكن لم يكن أمامه خيارٌ آخر ..

لكن أحيانًا يكون للقدر كلمة أخرى .. فقد وجدني مصادفةً أثناء تجوله بالشوارع .. فكان اللقاء الوحيد الذي بيننا الذي تمنيت وإن لم ألتقِ به حينها .. ولكن هو وكأن وجد ضالته بعد فقدانِ الأمل:

– لينا .. لقد بحثت عنكِ في أماكن كثيرة .. أين كنتِ؟

فقلتُ له بريبة يمتزج بها الفرح لحظاتٍ بملاقاته بعد تلك المدة من الفراق:

– في مكان ما ..

– فلنذهب إذن ونتحدث .. إلى أي مكان تريدينه ..

– ليس بمقدوري ذلك .. يوسف.

– لماذا؟ .. أرجوكِ لينا .. فلتأتي معي.

– حسنًا .. فقط قليلًا من الوقت.

– حسنًا .. فليكن.

ذهبنا إلى مطعم جاردينيو بحي يُدعى مدينة الزهراء.

– أترين حالتي .. كنت مُحقّة ..

قالها لي مبتسمًا لي في استهزاء من حاله لأتابع قولًا:

– أجل .. كنت أظن ذلك.

–أرجوكِ ..لينا.. فلتعودي لي .. مثل ما مضى من قبل ..أرجوكِ.

صمتَ برهةً ولكن كان على أن أبعده عني حتى قلت له:

– لم يعد هناك شيء مثل ما مضى .. يوسف .. أنت تغيرت .. لم تعد يوسف الشخص الذي أحببته.

– أعدك بأن كل شيء سيعود مثل الماضي .. أعدُك.

– أنا آسفة يوسف.. كنتُ أريد شخصًا ينتشلني من هذه الحياة السيئة التي كنت أتعايش فيها، ولكن أنا دمرتك معي.. آذيتُك قبل أن تقيني . أنا سبب بلاء كل شخص.. أولًا أمي ثم أبي وأخيرًا أنت..

حتى وجهت نظري نحوه بثقةٍ لأتابع حديثي:

– لعلي إذا تخليت عنك ينصلح حالك.. فلتنسَنى يوسف ..

– لا.. لينا .. لا تتركيني هكذا وتمضين.

– أنا آسفة يا يوسف يا ليتني ما رأيتُك! ويا ليتك ما أحببتني بهذا القدر!

تركتُ المطعم وأنا أركض، وما إن أدرك هو بعد لحظات ذلك حتى ترجَّل إلى سيارته ليلحق بي، وأنا ظللت أركض في شارع هذا الحي حتى سمعتُ صوت اصطدام شيء ما، ولكن تابعت طريقي ولم أنظر للخلف حتى تملك مني التعب والإرهاق، ففقدتُ السيطرة على نفسي، ووقعتُ أرضًا.. لقد فقدتُ الوعي حينها، ولولا أن (يوسف) قد اصطدم بشخص يعبر الطريق بدراجته من الشارع الجانبي.. لوصل إليّ.. ولربما أخذني معه بالقوة ..

لم يستطع (يوسف) اللحاق بي لأن شرطة المرور أوقفته بسبب الحادث، وبسرعة شديدة أصبح مكان الحادث مكتظًّا بالناس بين

صرخات إحداهن على من أُصيب، وكثرة الدماء التي توجد على الأرض، واعتقال الشرطة له..

لم يستوعب (يوسف) شيئًا، ولا أي شيء مما يحدث سوى حبيبته التي اختفت، وأنا التي أصبحت طريحة الأرض فاقدة للوعي على بُعد شارعين.. كان القدر يكتب لنا مصيرًا آخر..

يتبع ...

الجانب الثاني

(أحببتك بالشتاء)



6

يُقال على الفنان أن يشعر قلبه بألم كبير لكي يُصدِّق الناس أحاسيسه، ولكن لم يكن ذلك مفهومها هي.. تلك الفتاة التي كنتُ أسمع عنها فقط من صديقي (علي).. ابنة خالته التي تسبقه دراسيًّا وهي أصغر منه عمرًا بالواقع ..

(ريتاج).. لم أعرف ملامحها جيدًا.. قد نكون التقينا من قبل، ولكن لم يَدُرْ بيننا حديثٌ بعد، ولم أنتبه أنها ذات الفتاة التي كانت تعتلي الدراجة الأرجوانيه والجيتار الأرجواني أيضًا.. هي متوسطة الطول تقريبًا، ولم تكن شديدة الجمال أو متانقة بشدة.. فقط كانت بسيطة .. لم أتخيل أنها ستصبح صديقتي فيما بعد، وأن الحادث الذي تسبب فيه (يوسف) قد تكون نقطة تحول في حياة الجميع حتى هي..

حياهًا سابقًا كما علمت قريبًا.. إنها تعشق الموسيقى، وإنها ترى الفن في كل شيء جميل.. بشروق الشمس أجمل آية فنية يتم بها ابتداء كل صباح، وبسقوط الأمطار أجمل قصة حب تروى بها، وببزوغ القمر يتسامر الأحبة، وبالشوارع الخالية تنساب إليك ذكرياتك الجميلة عندما تسير بها، وطالما (ريتاج) معها جيتارها فإنها تملك العالم.

ريتاج) فتاة مرحة تستقبل يومها منذ استيقاظها بابتسامة.. فتعد أشياءها كتبها وحقيبتها وكأنها توفق ألوان أغراضها لتناسب لون ملابسها، ولكن فقط تكتشف إن لونيها المفضلين هما الأرجواني وما يتدرج عنه والوردي وما يتدرج عنه.. لذا فستجد جميع أشيائها بين هذا اللونين.. فيترك لديك انطباعًا بأنها فتاة تبدو كطفلة بوداعتها، وما إن تنتهي من تحضير أشيائها حتى تذهب لتتناول فطورها مع والديها وسرعان تقوم بتوديع أمها وأبيها بحب في الصباح قبل مغادرتها إلى جامعتها..

لم تكن تعلم شيئًا حقًا عن مغامرات الحب إلا بالروايات .. مثلي تقريبًا فيما سبق .. فأبوها وأمها تزوجا بطريقة تقليدية، وها هم أسعد زوجين تراهما إلى الآن .. فهما متفاهمان إلى درجة كبيرة.. حتى أختها التي تكبرها بعشرة أعوام (ريم) فـــ (ريتاج) تراها سعيدة بزواجها أيضًا، وبمجرد خروج (ريتاج) من المترل تعتلي دراجتها وكأنها تستقل طائرتها الخاصة، وعلى ظهر الدراجة مثبتة جيتارها ذا اللون الأرجواني..

فتدخل جامعتها.. فهي ترداد نفس الكلية التي بها ابن خالتها (علي) صديقي، وبذات اليوم السادس والعشرين من سبتمبر.. وقفت سيارة رجل عجوز بجانب باب الجامعة وبرفقته شاب صغير في مقتبل عمره.. كان هذا أول يوم له في جامعته الجديدة.. فكان ذلك (مالك) الذي معي بنفس الصفِ، والذي لم يخلُ أحاديث هذا الرجل العجوز من تقديم النصح إلى حفيده:

– ها هنا قد وصلنا ..

– شكرًا لك جدي.. نخدمك في كل الأوقات السعيدة.

– الأوقات السعيدة ستأتي عندما أزوّجك بأجمل فتاة.

– جدي.. ما زلتُ بالعام الأول في الدراسة الجامعية، وأمامي العمر طويل لأبني ذاتي ومستقبلي.. أعتقد مبكرًا جدًّا موضوع زواجي هذا.

– آه من شباب هذه الأيام.

– والله.. أحلى شباب.

– فلتذهب إذن.. سيضيع عليك مستقبلك إذا ظللت بالسيارة.

قالها الجد ساخرًا من حفيده لتتعالى ضحكاتهما.

– حسنًا.. سأذهب.. مع السلامة جدي.

ارتطمت دراجة (ريتاج) بأحد المصطفين أمام سيارتي حتى وقعت (ريتاج) أرضًا .. فقدَّم (مالك) يده إليها.. على ما ذكرته لي (ريتاج) أنها حتى لم تلاحظ ملامحه جيدًا.. كان يشغلها توترها بوقوعها والاهتمام بأشيائها المتناثرة..

وفي داخل طرقات الكلية التي بها خزائن الطلاب.. كانت مزدحمة بالكثير من الطلاب.. دخل (مالك) إلى الطرقات وبدأ بعض الطلاب بالانتباه إليه.. فكان يصحب ذلك الزحام المواقف المضحكة والمسلية من قبل طلاب السنة الأولى المشاغبين التي كنت أنا أستمتع بها، ولكن (ريتاج) لم تكن تحب الصخب، والاختلاط كثيرًا، ولم تتقبل طريقة شغب طلاب السنة الأولى مع كل الطلاب بدون استثناء أو سابق معرفة ..

(ريتاج) لديها صديقة واحدة.. مقرّبة منها، ومحيطة بكل تفاصيل حياتها.. كانت تُدعى (نورا).. مظهرها كان لا بأس به.. فهي ذات شعر أحمر متجعد قصير، الذي يكاد يغطي رقبتها.. فتستزيد ضحكاتها باستهزاء صديقتها للطلاب المشاغبين.

- غبي.

- ريتاج.. هل أفزعك هذا الطالب المشاغب لهذه الدرجة؟

قالتها (نورا)،وهي تضحك..لتتابع (ريتاج) قولها بسرعة وبغضب:

– طلاب السنة الأولى.. أغبياء.. جميعهم أغبياء..يأتون، ويمرحون ويفرحون، وكأنهم مازالوا بالصف الأول الابتدائي، ينتشرون في كل بقاع الكلية مثل الحشرات.. يا رب .. متى نرتاح منهم؟

– لا تقلقي.. سنرتاح قريبًا.. إنه آخر عام لنا وسنتخرج.

– أجل.

لم تكن (ريتاج) منتبهة أن من يقف بجانب خزنتها هو (مالك)، وما لفت انتباهها سوى أن أوصد (مالك) خزينته المجاورة لها بصوت مرتفع، وأتبعها بنظرة غير مريحة لها، وضح من خلالها أنه من الصف الأول أيضًا.. حتى تركها، ورحل.

جعلت هذه النظرة (ريتاج) يتحول وجهها من ابتسامة وسخرية من طلاب الصف الأول إلى جمود.. ثم سرعان ما بدا عليها الأسف عندما رحل.. دون أن تصدر أي كلمة.. غير أنها انتبهت أخيرًا أنه هو من قدَّم لها يده في هذا الصباح.. ليساعدها.

دخلت (ريتاج) محاضرتها الأولى في الصباح،وبالتزام طلاب الصف الأخير بدرجة كبيرة عند دخول أستاذهم.. على غيرنا نحن طلاب السنة الأولى، وكما أن هذا اليوم هو اليوم الأول لـــ (مالك) في هذه الجامعة فهو كان كذلك بالنسبة لـــ (يوسف) أيضًا.. ليُلقي عليهم التحية:

- مرحبًا بكم جميعًا.. أنا أستاذكم الجديد.. أُدعى يوسف..

- أهلًا بك يا أستاذ.

قالها الطلاب باحترام له ..

- أهلًا بكم جميعًا، وأفضل شيءٍ أني بدأتُ صباحي بتقديم محاضرة لطلاب الصف الأخير.. أعقل طلاب بالكلية.

وما إن انتهت المحاضرة الأولى، وانتقلت بعض الأحاديث بين الطلاب أن أستاذ المحاضرة التالية لن يأتي.. فمضى على أثرها الطلاب بفرح.. ليمرح بعضهم وليرحل آخرون إلى منازلهم مبكرًا.

وفي الطُّرقات كانت الفتاتان تمشيان يتحدثان ويسخران من بعض المواقف..

- ماذا إذن يا ريتاج؟.. أستاذ المحاضرة القادمة غير موجود.. ماذا سنفعل؟

- كنت سأذهب لغرفة الموسيقى لأتدرب.. أستأتين معي؟

- موسيقى.. موسيقى.. آه منك، ومن جيتارك.

- معشوقي هو ..

قالتها (ريتاج)، وهي مشيرة لجيتارها لتحتضنه.. لتتبعها (نورا) حديثًا:

- إنه محظوظ.

- كفاك.

- إذن.. فلنذهب.

وما كادتا تمشيان بعضًا من الخطوات.. حتى التقت الفتاتان بصديقي (علي) أثناء تركي لهم والتزامي بوعدي لزوجة خالي بالذهاب إلى المحاضرة التالية ..

- علي .. كيف حالك يا صغير؟

- ريتاج .. فلتظهري لي بعض الاحترام أنا أكبر منك سنًّا.

- حقًّا؟!

قالتها بسخرية منه.. لم أعرف لماذا كانا كذلك.. كل منهما يسخر من الآخر.. لم يطيقا بعضهما البعض منذ الطفولة.. ربما كلٌّ منهما يتملكه الغرور من الآخر.. حتى تبعتها ضحكات نورا بسبب حديثهما .. ليشتدَّ غيظ (علي) فيتابع قوله:

- ريتاج .. ألا يكفيكِ ما ألقاه من سخريةٍ من أمي بسببك.

- وماذا أصنع لك؟.. تابع دروسك جيدًا، وأوكد لك لن يوجد المزيد من السخرية.

- تركت لك أمر الاستذكار منذ وقت طويل.. أنا فقط إذا حضرت محاضرتي.. ما هي إلا للهو ..

- أعلم، ولهذا نصيحة من أخت صغيرة أو كبيرة كما تحب أنت أن تختار.. فلتتوخَّ الحذر لأنه يوجد أستاذ جديد بالكلية، ويبدو عليه أنه جاد، ومن المؤكد أنه سيطردك في يومٍ ما ويجعلك سخريةِ حقًّا أمام الجميع ..

- ريتاج ..

- حسنًا.. حسنًا.. فلنمضِ يا نورا .. إلى أين كنا ذاهبتين ..؟

رحلت الفتاتان بطريقهما إلى غرفة الموسيقى بينما (علي) ظل يسخر من (ريتاج) سرًّا.

وفي قاعة الموسيقى قامت (ريتاج) بترتيب بعض المقاعد بينما كانت تلهو (نورا) بالعزف على بعض الآلات، ولم يخلُ الحال من متابعة حديثهما:

- أمن الممكن حقًّا أن يكون قد غضب مني..؟

- من؟..علي!

- علي من يا نورا؟ أقصد الشاب الذي تكون خزانته بجواري ..

- الطالب الجديد الذي بالصف الأول ..

- أجل.. هل حقًا غضب مني بسبب كلماتي؟

- وإذا...؟

- وإذا.. لا.. لا.. لا أريد أحدًا أن يأخذ عني فكرة سيئة.. خاصة أنه في هذا الصباح قد قام بمساعدتي.

- وإذا ريتاج.. ما فيها؟

- لا تقولي وإذا نورا؟

- وإذا؟

قالتها (نورا) لتستثير صديقتها لكي تضحك ..

***

7

بمجيء اليوم التالي مصاحبة نفس الأفعال كمثله من الأيام السابقة، وفي طُرقات الكلية كانت (ريتاج) فقط ما تستطيع أن تفعله هو أن تسرق بعض النظرات لترى (مالك) بدون أن يلاحظ أي أحد، وأصبحت شاردة الذهن أكثر أثناء محاضرتها..

وبانتهاء المحاضرة ودَّعت (ريتاج) صديقتها سريعًا لتأتي بجيتارها من خزينتها لكي تذهب إلى قاعة الموسيقى للتدرب مع أستاذ الموسيقى..

وصلت (ريتاج) متأخرة كعادتها، وكان يجلس المتدربون بشكل دائري يتدربون على كلمات إحدى الأغنيات ولحنها.. إلى أن همت (ريتاج) بالجلوس بسرعة لكيلا يلاحظها مُعلمها، وما كان من أستاذ الموسيقى..سوى أن يسخر منها مازحًا معها بسبب تأخيرها المعتاد:

– ها قد جاءتكم قائدتكم اليوم.. متأخرة.. كعادتها.

– أعتذر يا أستاذي.

– طلاب السنة الأولى.. جاءوا مبكرين ..

– آسفة.

قالتها وهي تلحنها على جيتارها لكي ينهي معاتبته وسخريته لها أمام الجميع.. فما كانت من مفاجأة كبيرة لها أن يكون (مالك) بين المتدربين الجدد.. فسخرية أستاذها أمامه أشد عقابًا من أن تتأسف من مالك بسبب كلماتها في اليوم السابق.

– حسنًا.. نريد مشاركًا مع (ريتاج) لعمل أسطوانة موسيقية.. ألا يوجد أحد؟

قالها أستاذهم، ولكن لم يُبدِ أيُّ أحدٍ من المتدربين رأيه في ذلك فقد وضح عليهم التردد،ولكي تشجعهم (ريتاج) فقد بدأت هي بالعزف، وهي تنظر لهم واحدًا تلو الآخر حتى شاركها أحدهم بالغناء، وما إن التفت له، فاندهشت بابتسامة تكاد تخفيها فكان (مالك) الذي انسجم مع لحن جيتارها ليعزف على جتاره هو الآخر مبتدئًا هو الغناء لتتابعه هي بصوتها وأيضًا بنظراتها السعيدة الخجلة.

أصبح يمر يوم بعد يوم، وهما تقريبًا معًا في أغلب الأوقات يتدربان على هذه الأغنية معًا في استديو التسجيل.. يسجلان أسطوانتهما

لحفلات الجامعة للطلاب..حفلات قبل التخرج أو لأي مناسبة أخرى، وعدَّل (مالك) فكرة الذهاب للجامعة بسيارة جده بشرائه هو دراجة مثل (ريتاج) أيضًا.. مما جعلها تبتسم في استغراب له.. فجعله ذلك يتقرب أكثر من (ريتاج).. فأصبحا يروّجان لأغنيتهما بمشاركتهما الغناء معًا أمام الطلاب في الحدائق، وفي ممرات الكلية، وحتى في صالات التزحلق على ما يشبه الجليد.. كانت (ريتاج) بارعة في تحركها، وهي ممسكة بذات الوقت بجيتارها لتلتف هي حول (مالك) وهي تغني لينجذب إليها الأطفال هناك فيلتفون حولها بينما هو الذي كان يفشل العديد من المرات أن يتزحلق ويغني في نفس الوقت ليقع الكثير من المرات.. فتضحك (ريتاج) كثيرًا على ما هو فيه.

وبقضائهما معظم وقتهما معًا.. فكانا يمضيانه بفرح بالغ .. إلى أن أصبحا صديقين مقربين.. ما بين تناولهما للطعام معًا والاستذكار معًا.. حتى كانت (ريتاج) تساعد (مالك) في بعض المواد الصعبة للاستذكار، وفي أوقات فراغهما كانا يتسابقان معًا بدراجة كل منهما الآخر في الشوارع، وغالبًا من كان يفوز هو (مالك).. فيقوم بعد ذلك بالسخرية من بُطئها،ولكنها لم تكن بيدها حيلة للفوز عليه سوى باستخدام ذكائها.. فتُتلف إحدى عجلات دراجته تارة أو تلهيه تارات أخرى.. لتستزيد هي فرحًا بفوزها عليه بل تستزيد سخرية منه أكثر مما كان هو يفعل.

سحرت هي بتلألؤ مياه النيل، وهي معانقة للشمس بعد عصر أحد الأيام.. فتنت (ريتاج) بذلك وهي متكئة على سور الكوبرى لتكون شاهدة على هذا السحر الرباني، وكأنها وقعت في غرام هذه اللوحة الربانية.. لاحظها (مالك) وهي على هذا الحال.. ليتأمل تفاصيل وجهها بدلًا من تفاصيل لوحتها فكان وجهها بالنسبة إليه أكثر لوحات الرب إبداعًا ليُساق قلبه انجذابًا نحوها ..

أصبح شاغلها الذي طالما ودت (ريتاج) أن تفعله هو الغناء على أحد المراكب بالنيل.. ففعل لها (مالك) ذلك بدون تردد منه.. بل كأن تلك الفكرة استثارته هو أيضًا.. فأخذها من يديها حتى اعتليا أحد المراكب.. كل منهما مستقلًا مركبًا آخر ..

هي وبصحبتها بعض الفلاحات لتجلس وسطهن، وهو بمركب آخر محاط أيضًا بالكثير من الفلاحين العائدين إلى بلدهم متخذين من هذه المراكب وسيلة لتنقلهم إلى منازلهم.. فتشعر هي بسعادة بالغة لتستلهم روحها بما تشعر لتغني والمياه محاطة بجانبها في كل مكان ليختفي لونها الأزرق لتصبح ذات لون ذهبي بامتزاجها بأشعة الشمس، وعندما تلاقت عيناها بعينيه لم يستطع أن يتجنبها ليدرك أنه غرقَ في نهر حبها، وهي فقط القادرة على إنقاذه.

كل شيء تغير فيهما فأصبحا شخصين مختلفين.. من قال إن التغير لا يحدث وإن لم نشعر به بعد، ولكنه يحدث عندما يحدث ويقع القلب

عاشقًا ولهانًا فيتغير معه كل شيء.. كل شيء سيء سيصبح جيدًا، وكل قبحٍ سيصير جميلًا، وما كانت تشكو منه (ريتاج) سابقًا أصبحت مندمجة معه.. فاندمجت مع مشاغبات طلاب المرحلة الأولى وتشاركت معهم.. بضاحكاهما، وهي التي لم يكن الشغب سوى سلوك تنفر منه، وممن يقوم به.. أصبحت الآن تشعر بأنها شخص آخر أكثر مرونة.

8

لم يكتفِ (مالك) بمتابعتها بنظراته،وهي أدركت أنها وقعت في حبه ببساطة.. هو فقط ما يعرفه أنه يسعد ببقائه معها، وهي أيضًا تتمنى لو تظل معه للأبد.. عندما تسعد تعطي السعادة حقّها في أي وقت وأي مكان.. حتى في هذا الفصل..فصل الأحبة..فصل الشتاء...

ظلت الأمطار تنهمر ذات يوم بشدة، والطلاب يستنجدون بالدخول في مباني الكلية تجنبًا للمطر إلا هي التي كانت تمشي بخطوات عكسية عنهم مقتربة من باب المبنى لتخرج منه، وبيدها جيتارها لتغني بجنون تامٍّ، وكأنها تودُّ أن تشاركها الأمطار لحظات حبها غير المعلنة فانسجمت تحت قطرات الأمطار.. ليلحقها (مالك) بسرعة وبيده إحدى المظلات ليبعد عنها الأمطار لكيلا تمرض، ولكن لم يستطع هو أن يبعد عينيه عنها وهي أيضا..

تسبقهم بذلك نظراتهما قبل كلامهما بأنه قد وقع أخيرًا كلٌّ شخص منهما في غرام الآخر.

وما إن توقفت الأمطار حتى أوصلها (مالك) إلى منزلها، وكل منهما على دراجته حتى رآها أبوها من نافذة المنزل عندما ودّعها (مالك) ملوحًا بيديه لها إلى أن مضى..

الأب الذي بدأ عليه الشعور بالريبة فكان يخشى على ابنته أكثر من أي شيء آخر.. ليحدث زوجته في قلقٍ:

– ما الذي يحدث؟.. ابنتك.. مَن هذا الذي يرافقها..؟

– لِمَ أنت مضطرب هكذا أنه يوم مضطرب بالمطر، ومن المؤكد أحد زملائها في الكلية أراد فقط أن يقدم لها المساعدة.. لا تقلق لقد قمت بتربية بناتك تربية حسنة.. ريم.. تزوجت ولديها أجمل طفلين في العالم، وريتاج.. روحها فيك، ولا تستطيع أن تجعلك حزينًا أبدًا..

– الفتاة أصبحت كبيرة الآن يا عفاف، لم تعد الطفلة الصغيرة بعد.. أخاف أحيانًا من أن تضل طريقها.

– خوفك الزائد هذا سيجعلك أنت مَن تُعاني إن لم تُحدّ منه.

قامت الأم بفتح باب المنزل لـــ (ريتاج) إثر دقات (ريتاج) المتلاحقة.

– ها قد وصلتِ أخيرًا..فلتقومِي بتبديل ملابسك سريعًا واغسلي يديكِ لكي نأكل.

– في الحال.. هل أبي موجود؟

وما إن رأته حتى اشتدت عيناها لمعانًا لتتابع:

– أبي.. مساء الخير.. لما أنتَ عابس هكذا؟.. أحدث شيء ما؟

قالتها وهي تنظر نحو أمها لتتفهم ما يحدث باستغراب:

– لا شيء.. فلتسرعِي لكي تعدِي معي العشاء.

وعلى مائدة العشاء ظل ثلاثتهم صامتين بسبب صمت الأب، ولكن نظرات الأم وابنتها لم تخلو من الأحاديث المتلاحقة.. حتى قام هو بكسره:

– كيف كان يومك يا ابنتي؟

– جميلًا جدًّا..انتهينا من توزيع الأسطوانات على بعض المكتبات، والمطاعم، وقريبًا ستنتشر.

– فليكن الله معك، ويبارك في طريقك.

قالتها الأم سريعًا لابنتها.. حتى تابعتها (ريتاج) بنظرات فرحة:

– يا رب يا أمي.

– ومَن هذا الشاب الذي أوصلك للمترل؟

- إنه (مالك) يا أبي.. شريكي في إعداد الأسطوانة الغنائية.

كانت تقولها وهي متوترة إثر مفاجأة سؤال أبيها لها، وعندما لاحظت (ريتاج) إستمرار عبوس أبيها أدركت ما يخشاه أبوها.. فتابعت قولها مستمدة بعضًا من الثقة:

- إنه يصغرني بـــثلاثة أعوام.

- يصغرك بثلاثة أعوام.. إذن هو بالصف الأول، صحيح؟

- أجل يا أبي.

عندها اطمأنَّ قلب الأب شيئًا ما.. ليتابع حديثه نحو ابنته:

-المهم يا ابنتي أن تحتاطي في تعاملاتك مع الآخرين.

- بالطبع.

فقط نظرت (ريتاج) إلى طبقها وهي تعلم حقًّا أن ما قالته لأبيها صحيح، ولكن ما تشعر به نحو (مالك) ليس كشريك غناء أو صداقة فقط، وإنما أبعد من ذلك.

لم يمر يوم على (ريتاج) و(مالك) إلا انقلب تناولهما للطعام معًا إلى تحدٍّ بينهما مع أصدقائهما.. أيٌّ منهما ينهي عددًا أكبر من أكل الحلويات أو شرب أكواب أكثر من العصائر وهكذا.. سيكون فائزًا وعلى الخاسر أن يقوم بدفع أثمان المأكولات جميعها.

كنتُ أراهما مجنونين، وخاصة عندما تناثر بعض الطعام على ملابسي عندما أتى (مالك) بعدها معتذرًا مني .. لم يكن غريبًا حينها ترديدها لاسم (علي)، وما أدراكم ما (علي)! فلقد جاءت له فرصة على طبق من ذهب ليراوغ ابنة خالته كما كانت تفعل هي معه ..

الآن الكرة أصبحت في ملعبه وخاصة بمعرفته أن زوج خالته لا يحبذ أن يوجد فتيان أصدقاء مقربين لبناته .. لم تخلُ نظرات (علي) لـــ (ريتاج) من الابتسامة بمكر ودهاء.. بينما (ريتاج) المسكينة لم تستطع أن تتحمل جلوسها أكثر من عشر دقائق على مقعدها كأنها تجلس على جمر موقد حتى نهضت من مكانها ومشت بالقرب من طاولتنا لتنظر لـــ (علي) كإشارة له بأن ينهض أيضًا ويتبعها خارجًا:

- لما نهضتِ من مكانك؟، و تركتِ مرحك مع من.. مالك

- لأني أعرفك.. ستذهب وتهوّل الموضوع بإخبار أبي.. لتوقع بي.

- صحيح.. فأنتِ تعرفينني حقًا.

- فلتنسَ ما رأيته.

- ولماذا؟كنت تسخرين مني، وتخبرين أمي بكل شيء.. صحيح؟

كادت (ريتاج) تفقد أعصابها لولا أن (علي) تدارك أن من الأفضل أن يستغل تلك الفرصة بسرعة:

- حسنًا.. حسنًا.. لن أخبر أباكِ حاليًا، ولكن هذا يعتمد عليكِ أنت.

- كيف؟

- أن تكفّي عن سخريتك مني وإخبار أمي بكل شيء.. وقتها سيكون فمي مقفلًا ..

- أنت تهددني إذن.

- أنتِ الآن بيدك كل شيء، وافعلِي ما يحلو لكِ.

ليتركها (علي) وهو مبتسم بشدة بتلك الفرصة التي أتت له ولم تكن على البال أو الخاطر.. على عكس ابنة خالته التي وقد تبدل حالها لتعاسة بسبب هذه الذلة التي ستجعلها تحت رحمته.

في صباح اليوم التالي.. جاء (مالك) مبكرًا ومسرعًا إلى جامعته.. منتظرًا (ريتاج) ليخبرها عن ميعاد الحفلة التي ستقيمها الكُلية ..

- أخيرًا أتيتِ.. أنتِ والتأخير وجهان لعملة واحدة.

- ماذا يوجد (مالك)؟.. لما أنت منفعل هكذا؟.. كأنك تعرفني فقط اليوم ..

- حسنًا.. إذن لن أقول لكِ شيئًا ..

- آه، ولهذا يبدو عليك العجلة .. أظنه أمرًا رائعًا.

- لن أقول لكِ.

- مالك .. كفاك .. فلتخبريني.

- لا.

- حسنًا.. أعدكِ أني لن أتأخر بعد اليوم.. ماذا إذن؟

- إذا كان هكذا سأخبرك.. تم إعلان ميعاد حفلة بالجامعة.. بعد أسبوعين من اليوم،وقد اتفقتُ مع أحد المنظمين بالحفلة على أن ننشر موسيقانا فيها.

- حقًّا.. مالك .. حسنًا لا مجال للتأخير.. علينا التدرُّب أيضًا، وبشدة لنكون على استعداد.

- حسنًا .. حسنًا .. أعلمتِ لِمَ كنتُ في عجلة من أمري!

- أجل معكَ حقٌّ.

- ماذا تتخيلين عنها مسبقًا؟

- ستكون حقًّا رائعة يا مالك.. فقط تخيّل كم عدد الأشخاص الذين سيستمعون لأسطوانتنا!

- ستكون رائعة.

- ولكن ..

- ولكن ماذا؟..

- أبي.. لن يسمح لي بالخروج بعد الثامنة.. فلتتخيل إذا أخبرته عن حفلة ستبدأ في التاسعة.

- تحدّثي معه.. لماذا تتوقعين الأسوأ؟

- إنه أبي، وأعرفه.. كثيرًا من التحفظ، كثيرًا من القلق، كثيرًا من الحب.

- إذا كنتِ تريدين شيئًا حقًّا لِمَ لا تُبيِّنين ذلك له، وتُصرين عليه؟

- أيضًا فلتعرفني.. أنا لستُ ممن تناضل ضد أبيها من أجل أي شيء تريده.

- حسنًا.. فلتعديني أنكِ على الأقل ستحدثينه.. فقط حدّثيه.. لعل يخيب ظنُّك.

- كم أتمنى أن يخيب ظني ..

وبمرورهما بالطرقات التقيا بـــ (يوسف):

- كيف حالكما يا شباب؟

- بخير.

قالتها (ريتاج) ليتابعها (مالك) في حديثه مع (يوسف):

- بخير يا أستاذ.. صحيح هل ستأتي إلى الحفلة..سنعرض موسيقانا كاملة هناك.

- جميل جدًّا..سأحاول الحضور..كيف هي حال الدراسة معكما؟ أيضًا لا تجعلا الموسيقى تسلب وقتكما بالكامل.

– لا تقلق أستاذ ..

قالتها (ريتاج) وهي مبتسمة لأستاذها في ثقة من امتلاكهما زمام أمورهما.. ليتابعها (يوسف):

– إذا احتجتما إلى أي عون فمكتبي مفتوح لكما.

– بالطبع

– فلتعذراني عليَّ المغادرة.

وسرعان ما واصل (مالك) و(ريتاج) متابعة طريقهما.

– أرأيتِ.. حتى الأستاذ قال إنه سيأتي.

– قال إنه سيحاول.

– وأنتِ أيضًا ..

– سأحاول .. مالك ..

وإثر عودة (ريتاج) من جامعتها لمنزلها في فترة الظهيرة وجدت والدها يقرأ الجريدة وبجانبه والدتها تتابع التلفاز.. جلست (ريتاج) بجانبهما.

–أبي.

– ماذا بكِ؟ ..

– أبي.. يوجد حفلة كبيرة ستقيمها الجامعة، وسيتم إصدار أسطوانتي فيها.. فهل ترى أنه سيكون جميلًا جدًّا استماع الناس للأغاني التي قمتُ بإعدادها بدون وجود صاحبة الأسطوانة.

ابتسمت الأم، وبدأ الأب يتشتت انتباهه عن متابعة قراءته للجريدة.. لتتابع (ريتاج) حديثها:

– أبي..ما رأيك؟ هل أترك كل هذا المديح جانبًا بدون أن أحظى به؟

– إذن.. هل نورا ستذهب؟

– أجل .. يا أبي.. بالطبع..

– حسنًا..

– حقًّا.

– ولكن بشرط ..

– كما تريد سينفذ ..

– أمامك ساعتان فقط.. لا وجود للتأخير.

– طبعًا أبي ..

وحينها قامت (ريتاج) بتقبيل رأس والدها فرحًا ولم يسعها هذا الفرح أكثر.. فأخذت الهاتف بسرعة لتخبر (مالك).

– مالك.. كنت محقًا.. أبي وافقَ.

– ألم أخبرك، وها قد تحققت أمنيتك.

– لا أطيق صبرًا.. لأرى الناس يستمعون للأسطوانة.

– فلتتحلي بالهدوء.. إنها عدة أيام وسنذهب وسنرى كل شيء.

وبمجيء صباح اليوم التالي كانت الأم منهمكة بتحضير قائمة كبيرة لمستلزمات المنزل.. تستعد بذلك لاستقبال ابنتها الكبرى (ريم) وحفيديها (إياد) و(ملك) لتحدث ابنتها قبل مغادرتها لجامعتها.

– لا تنسي أن تأتي مبكرًا ..

– لما؟.. ماذا يوجد يا أمي؟

– أختك قادمة.. هي وابناها.

– قد نسيت كليًا.. حسنًا.. سأنهي كل محاضراتي مبكرًا.. هل تريدين أن آتي بأي شيء معي؟

– من الجيد إذا أتيتِ بهذه الأشياء فقد أعددت لك قائمة بذلك.

– إنها قائمة طويلة.. لِمَ كل هذا؟ إنها لم تأتِ من سفر،وأيضًا فإننا نراها تقريبًا مرة في كل أسبوع، وكل مرة تفعلين ذلك.

قالتها (ريتاج) وهي مبتسمة لوالدتها.. لتتابع الأم قولها:

– إن لم أفعل لكما ذلك.. فلمن إذن؟

– أمي.. أحبك كثيرًا.. إذن متى ستزداد هذه السلسلة بالألماس؟

- ريتاج.. كفاك تحايُلًا ..

- أعدك أمي سأجعل زوجي المستقبلي يأتيني بواحدة..شاء أم أبى.

وبمرور الوقت صارت الساعة الثانية بعد الظهر وبمجيء (ريم) وابنيها.. التقت الأختان وسلمتا على بعضهما البعض وسلم (إياد) و(ملك)على خالتهما بحرارة شديدة، وأخذت تلهو وتلعب معهما، وما إن ذهبا الحفيدان إلى جدهما حتى تحدثت الأختان معًا، وما فهمته (ريم) من كلام أختها سابقًا أنها تحب شابًا ما، ولكنها ما إن علمت أنه يصغر أختها بـــثلاثة أعوام حتى انقلب وجهها من ابتسامة إلى قلق.. قلق على أختها من أن تصبح مثلها وتتعلق بشابٍّ وتحبه وتتزوج بآخر.

حذّرت (ريم) أختها من ذلك، وعليها أن تترك هذا الحب جانبًا لأنها عاجلًا أم آجلًا سينتهي بها الحال مع آخر.. مناسبًا لها بالعمر، ومستقبله جيد وأيضًا كما يرغب به والدها أولًا وأخيرًا..

كانت (ريتاج) تعلم كل كلام أختها مسبقًا.. كانت تعلم أنها عليها أن تنتبه جيدًا لمن ستحبه، أن تنتبه لقلبها، فبكاء القلب لا صوت له.. ولكنها تركت هذا جانبًا .. وتركت قلبها ينبض مثلما يريد .. ولمن يريد ..

9

مرَّت أيام الأسبوع سريعًا.. ما بين تحضيرات (ريتاج) للموسيقى هي و(مالك) ومساعدة أصدقائهما في تصميم ديكورات قاعة الحفلة.

حتى جاء اليوم المنتظر لـــ (ريتاج) و(مالك).. كاد قلب (ريتاج) حينها يتوقف عن النبض منذ صباح هذا اليوم.. حتى حل مساؤه.. فارتدت فستانها ذا اللون الأزرق الأدكن حتى جاءت صديقتها (نورا) لمنزلها لتذهبا معًا للحفلة مبكرًا ..

وما إن وصلتا إلى المدخل حتى عبرت الفتاتان معًا من الباب.. تركتها (نورا) لتذهب لبعض من أصدقائها للحظات تلقي عليهم التحية.. شعرت (ريتاج) بأنها بالمكان الخاطئ في وسط تلك الحشود.. فإن هذا المكان لا يناسب طبيعتها الهادئة.. على عكسي أنا..فكان مليئًا بالشباب والفتيات المتهورين والمشاكسين، وأيضًا المدمنين..

فأخذتْ تتراجع وتتحاشى بعض الفتيان الذين ينظرون إليها.. إلى أن اتكأت على إحدى المناضد الموضوع عليها المشروبات يتملكها التوتر.. حتى سمعت صوته فشعرت بالسعادة والاطمئنان لتنظر له.. فلقد وجدها (مالك).. لينظر لها بسعادة.. ليحدثها:

– مرحبًا.. أنا.. أدهم..

– ماذا؟

قالتها (ريتاج) باستغراب نحو ما يفعله لينظر لها بترقُّب وكأنها فتاة يراها لأول مرة.. ليتابع قوله لها

– وأنتِ؟

ما هي إلا ثوانٍ حتى ابتسمت (ريتاج)، وكأنها فهمت ما يحاول (مالك) القيام به لتتابع هي قولًا:

– فيروز.

– هل أنتِ سورية؟

– مصرية.

– ليس يبدو عليكِ.

– وأنت يبدو عليك تمامًا.

حتى أدارت ظهرها له ليقترب هو منها قليلًا متابعًا قوله:

– أولم تحبي الرجال المصريين؟

– نعم أنا لا أحبهم فهم مملون.. أنا فقط أحب الخطورة في الرجال.

– هذا المكان مليء بهم.

– لا أرى أحدًا هنا.. فقط أحدهم كان يمشي بجانبي.. كان ينظر إلى عيني ويسرق قلبي..

حتى همَّ (مالك) بالرحيل عنها متابعًا قوله:

– حظًّا سعيدًا لك بالبحث عنه.

– أدهم.. أنت تستسلم بسهولة.

– لم أكن أحاول حتى.

– لماذا؟.. ألستَ معجبًا بي؟

قالتها بكل ثقة بدون أن تعنيها حقًّا.. ليتابع هو حديثه:

– أنا معجب بكِ. ولكن عندما ستتعبين ستأتين إليَّ.

– وأنا لن آتيَ.

– ستأتين..

ليتابع قوله وهو مقترب منها:

– بسبب الشخص الذي كان يمشي بجانبك، والذي كان ينظر إلى عينيك وسرق قلبك.. لا يوجد أحد آخر هنا ..

ابتسمت (ريتاج)، ولكن لم تكتمل ابتسامتها بمجيء (علي) حيث همَّ (مالك) بالذهاب لوحدة التحكم بالأغاني بمفرده.. أما هي ظلت مع ابن خالتها.

- أجئتُ بوقت غير مناسب؟

- مَن يسخر من الآخر الآن يا.. علي ..؟

- بالرغم من أنك تعشقين الموسيقى فإنكِ لم تحبي الوجود بالحفلات مطلقًا.. أليس غريبًا أن تأتي اليوم؟

- علي.. ليس غريبًا منك أن تقول ذلك بسبب ما تتناوله.. إليك ما لا يدركه عقلك.. إن الوضع مختلف.. الآن أصبح لي أسطوانة تحمل عليها اسمي، وفني.. أترى...؟

كانت بيديها أسطوانتها لتشير بيديها إلى اسمها الذي تحمله لتظهر ذلك لابن خالتها.. متابعة حديثها وهي مبتسمة.

- ولذلك أنا لست هنا من أجل أي شخص أو فعل أي شيء .. مثلك.. فقط لأرى نتيجة مجهود عملي ..

- حظًا موفقًا إذن.

- شكرًا.. علي.. لا تنسَ أن تفرغ ما في جيوبك قبل أن تطرق باب منزلك.. فقط تجنبًا للمشكلات.

لم تتحْ (ريتاج) الفرصة لـــ (علي) بالرد مرة أخرى عليها.. كانت تجادله، ولم تمل مجادلته قط.. كأنهما قط وفأر.. ولدا هكذا.. بينما هي

أخذت تسلك طريقها بصعوبة من كثرة الطلاب الموجودين.. حتى اصطدمت (ريتاج) بي واعتذرت كلٌّ منا للأخرى، وما إن وصلت (ريتاج) إلى وحدة التحكم بالموسيقى نحو (مالك) حتى بدأ الشباب يتراقصون على نغمات الموسيقى بشكل استعراضي، وظل (مالك)، و(ريتاج) يتابعان بنظراتهما رقصات الشباب، ولكن سرعان ما قمتُ أنا بمشاركتهم الرقص.. لم تلتقِ (ريتاج) بي إلا عندما اصطدامنا معًا في الحفلة، ولكن (مالك) ما إن رآني لم يستطع أن يُخفي تعليقًا عني لـــ (ريتاج):

- لم أرَ في حياتي فتاة أكثر شغبًا منها.

- أتعرفها؟ ..

- أولم تسمعي عنها من قبل.. إنها (لينا).. أكثر الفتيات شعبية بكُليتنا.. هي ما زالت بالصف الأول منذ أربع سنوات.

قالها وهو يضحك متعجبًا منها بعدم معرفتها بي.. لتتابع هي، وقد تملكتها الغيرة بعض الشيء.

- جيد جدًّا.. أنت لم يمر عليك سوى شهر هنا وتعلم كل شيء مقارنةً بي ..

- لِمَ أشعر أن حديثك يحتويه الغيرة؟

- ماذا؟ غيرة.. مِمَّن؟ وعلى من؟

قالتها له، وهي ترميه بنظرة ثقة كعادتها ولكنها اندمجت بعدم الاهتمام به ليتابع هو حديثه:

– غيرة وغرور إذن.

ابتسمت (ريتاج) له، بل ازدادت دهشتها عندما قام (يوسف) بمشاركتي الرقص.. ليتابع (مالك) حديثه لها.

– حتى أستاذنا.. لم يستطع أن يتجنبها.

– أنتم أيها الرجال ..

– أتظني أن هذا الوقت سيكون مناسبًا..؟

– لماذا؟

– لتشغيل أغنيتنا..

ولكنها شعرت،وكأنه كان سيقول شيئًا آخر.. لتتابع قولها بتأكيد ما سيهمُّ بفعله:

– حسنًا.. فالذي تراه جيدًا افعله.

وما إن بدأت أسطوانة (ريتاج)، و(مالك) في أن يسمعها الناس بحب حتى توقّف الجميع عن أداء الرقص بطريقة استعراضية إلى أدائه بأسلوب رومانسي كلٌّ مع من يحب، وعندها لم يستطع (مالك) أن يخفي ما بداخله أكثر ليمسك بيدي محبوبته ليعترف لها صراحة بذلك فنظر لها وهو مبتسم ليقولها لها:

- أحبك بجنون ..

- مجنون ..

- كل العشاق بالأساطير والروايات أُطلق عليهم هذا اللقب.. عِشقي لكِ ليس بقليل من درجة عشقهم للمحبوبيهم.

- حقًا؟!

قالتها، وهي تسخر منه مبتسمة.. ليتابع قوله:

- أنتِ لم تري سوى مالك المهتم بدراسته فقط، ولم تري مالك العاشق المجنون بعد.

ابتسمت (ريتاج) بخجل مما يقوله لوهلة.. مما زاده ثقة على أن يتابع ما يقول:

- فقط أنتِ من جعلت قلبي ينبض، ولكِ أنتِ كل حياتي.. أن رآني العالم مجنونًا بحبك.. فهذا أسمى أهدافي.

- لن أندهش بكلماتك.. لأنك مؤلف أغانٍ، وهذا هو ما تجيده.

- هل تظنين هذا حقًا؟

فتبتسم هي ليتابع هو قائلًا ..

- يومًا ما سأرقص معك على دقات قلبي، وأهمس لكِ بأنك أنتِ سعادتي.

كانت (ريتاج) تنظر بعمق في عينيه، وهو يقول ذلك، وكانت تشعر بأنها ليست على أرض الواقع.. مؤكد أنها انزلقت في إحدى رواياتها الرومانسية التي تقرؤها مما جعلها لا تريد أن تترك هذا العالم فهي الآن أصبحت تعلم أنه هو من تريد أن تظل معه إلى الأبد ..

وما إن انتهى (مالك) من كلامه لها.. كانت تنتهي معه أغنيتهما التي يسمعها الآخرون، وسرعان ما جاءت (نورا) لتقطع حديث (ريتاج) قبل أن تتفوَّه به لتخبرها بأنهما تأخرتا في العودة إلى المترل مما جعل (ريتاج) تتذكَّر وعدها لأبيها.

– ريتاج.. لقد تأخرنا.

– يا إلهي! إنها قاربت على الحادية عشرة.. أبي حتمًا سيقتلني.

– هل أقوم بإيصالكم ..؟

– لا.. لا.. فـــنورا معي، وأيضا فلقد اتفقتَ معي بأنك ستظل هنا إلى أن تنتهي الحفلة .. صحيح؟

– صحيح ..

– ليلة سعيدة.. مالك.

– ليلة سعيدة لك أيضًا، ولكِ أنتِ أيضًا يا نورا.

– شكرًا لك.. مالك.

قالتها (نورا) له .. لتسرع بخطواتها هي وريتاج لترحلا.. ليتابع (مالك) حديثه سريعًا قبل اختفائهما.

- ريتاج!

- أجل.

- سأحدثك على الهاتف.. لا تنامي مبكرًا.

اكتفت (ريتاج) بالابتسام، ورحلت هي و(نورا) بينما تابع (مالك) موسيقاه بالحفلة بين مجموعة من أصدقائه، وهو يتملكه السعادة بإخبار محبوبته أخيرًا بما يشعر تجاهها.

وما إن وصلت (ريتاج) للمنزل حتى وجدت أباها وأمها يتناولان طعام العشاء،وسمعت صوت أبيها من بعيد وهو يتضاحك وهو يقول:

- تأخرتِ مخالفة بما وعدتِني به.

- كم كانت ممتعة.. إن كنت قد حضرت معي كنت ستقول هكذا أيضًا.

- تتذاكين على أبيك إذن.. أين جُنديتي الصغيرة التي تولي التزامها بوعدها في المقام الأول ..

قالها وهو يتضاحك مع ابنته.. لتعلق والدتها سريعًا:

- أيوجد جنود بهذا الجمال؟ اترك الفتاة تفعل ما تريد وتستمتع بوقتها.. أخبريني يا صغيرتي كيف كانت الحفلة؟

- جميلة جدًّا أمي ..

- إلى أين أنت ذاهبة؟ ألن تتناولي طعامك؟

- آسفة أبي.. ليس بمقدوري الآن تناول أي طعام.

- ولو قطعة صغيرة يا بنيتي.

- فقط لكيلا تغضبي يا أمي سأتناول فقط قطعة صغيرة.

لتذهب (ريتاج) إلى غرفتها وبيدها بعض من الطعام.. جلست على الأريكة التي بغرفتها تنتظر مهاتفة (مالك) لها كما وعدها.. كانت تتذكر كل كلمة قالها لها منذ أن رأته بالحفل، وعندما وصلت بها ذاكرتها إلى كلمة.. أحبك بنبرة صوته..أُصيبت برعشة مصاحبة لها ابتسامة بالغة.

كادت تجن في غرفتها.. فكانت تصدر أصواتًا عالية بما تشعر.. كما لو أنها تود أن تشارك العالم فرحتها، وأدركت حديث (مالك) عن أن كل العشاق أطلق عليهم لقب الجنون.. حقًا هي شعرت بهذا الجنون أيضًا، وإنها لم تعد على الكرة الأرضية منذ ساعات.. فقط فهي في عالم آخر ساحر مليء بالحب وتحقيق الأمنيات.

أما أنا فإني متذكرة هذه الليلة بالنسبة لي إلى الآن.. فلم يغمرني فيها السعادة مثلها، وإنما الحيرة والقلق والخوف، وعلى عكسي أيضًا فهي مقدامة في حبها دون أن تضع عاقبة فكر والدها في الحسبان حينها عن (مالك) كعائق لها أمام حبها.. أما أنا فكنت أخشى على مستقبل (يوسف) في هذه الليلة إن ارتبطتُ به .

فرحت (ريتاج) بشدة عندما سمعت جرس الهاتف.. فتناولته سريعًا وأخذت تتأمل صوت الجرس بدون أن تجيب عاشقها بعد،وكأنها تريد أن تمتزج مع هذا الجرس، وبعد عدة ثوانٍ عادت إلى عالمها الواقعي لتجيبه:

- مرحبًا ..

- أكنتِ نائمة؟ ..

- لا .. لم أنم بعد ..

- ما زلتِ تنتظرينني إذن ..

- كنت أريد أن أطمئنّ على الحفلة .. كيف صارت ..؟

- جيدة .. خُتمت بشكل جيد.

- جيد جدًّا

- ألا تريدين أن تقولي شيئًا؟ ..

- شيئًا.

كانت تحاول صنع عدمِ المعرفة بما يريده (مالك) لتتابع قولها وهي تُراوغه:

- شيئًا ماذا ..؟

- كنتِ ستقولين لي شيئًا في الحفلة قبل أن تتركيني.

- في الحفلة .. أنا .. لستُ أتذكر.

- ريتاج!

- مالك!

- أستتحدث هكذا طيلة الليل؟

- أنتَ من قلت إنك ستهاتفني.. فلمَ؟..أنت من تريد أن تتحدث

قالتها وهي تضحك بشدة بدون أن توضح فعلها له.. فقد كانت مدركة تمامًا ماذا يريد أن يسمع منها:

- حسنًا، وأنا لم أعد أريد أن أتحدث.. فلتصبحي على خير.

- حسنًا.. حسنًا.. لِمَ تبدو يائسًا هكذا.. أغمض عينيك أولًا، وحذارِ إن لم تفعل .. فسأعلم.

- حسنًا .. أغمضتها ..

- أنا أيضًا.. أحبُّك، وأشعر كما تقول.. مجنونة تمامًا..

فتح (مالك) عينيه وهو سعيد بما يسمع من كلمات من (ريتاج).. علم كم أنه محظوظ في حبه، إن الفتاة التي يحبها تبادله نفس شعوره.. وكم هما يفهمان بعضهما البعض أيضًا ..

أسكنها عرش قلبه كملكة.. قلبه الذي لم يسكنه أحد قبلها.. فاكتفى بها عاشقة له وبات هو متيم، وظلا يتحدثان حتى الصباح، وما أنجدها صباح اليوم التالي أنه إجازة ممنوحة لنا من الجامعة فذهبت لتنام وتستريح ..

وفي عصر هذا اليوم ذهبت (ريتاج) لأختها لتزورها وتتناول الغذاء معها بالخارج في أحد المطاعم كما اتفقتا، و(ريم) لم تكف عن النظر لابنيها والاهتمام بهما بإطعامهما.

- متى سيأتي أحمد؟

- أمامه شهر ونصف ..؟

- أختي .. كم أنتِ عظيمة.. أن تتحملِي مسئولية هذا المنزل، والولدين.. كل شيء هنا بمفردك.. أنتِ قوية.

- حقًا أنا كذلك.. أعلم، ولكن أيضًا أنتم بجانبي.. صحيح؟

- صحيح.

- وكيف حالك؟، وخصوصًا كيف حال مالك؟

ضحكت (ريتاج)، وهي يغمرها الخجل لتتابع أختها حديثها:

- أرى أن عينيك قد أخبرتاني بكل شيء.

- ريم.

- فقط.. فلتخبريني المزيد.

- المزيد هو أن أبي لا يعلم شيئًا.. أتعتقدين ريم أنه سيوافق إذا تقدَّم مالك لي بالزواج أم سيعارض مثل سابقًا.. مثلك أنتِ؟

- دعكِ مني الآن.. الأوقات تتغير.. عليكِ بأن تتحدثي معه أم تنتظرين أحمد ليَحدثه؟.

- أجل.. فلننتظر عودة أحمد.. أبي يحترم رأيه،ومؤكد سيقوم أحمد بإقناعه.

10

وصلت (ريتاج) صباح اليوم التالي إلى الجامعة متأخرة.. كعادتها.. حتى اندهشت مما يحدث.. ليستقبلها (مالك) بفتور.

– انظري نورا.. لقد جاءت صديقتك متأخرة كعادتها.

– فلتأخذي هذه يا ريتاج، وشاركينا ..

– ما الذي يحدث؟، وما كل هذه البالونات؟

– إنه عيد مولد الأستاذة ليلى غميدة كليتنا.

– ماذا؟ أتسخر مني يا مالك؟ منذ متى ونحن نقيم حفل عيد مولد عميدة كليتنا؟

– كفاك مزاحًا يا مالك.. الأمر ليس هكذا يا ريتاج.. فقط فلقد طلبت منا عميدة الكلية والأستاذ يوسف إقامة هذا ..

- أستاذ يوسف؟ أراهن بأن الموضوع له صلة بـــلينا.

- لا تستعجلي الأمر حبيبتي.. سنرى ماذا سيحدث؟

وما إن عبرت أنا الباب حتى انهالت عليَّ الزينة والبالونات بكثرة، وابتسم الجميع لي مصاحًب بهاتفهم باسمي، ولم تكف (نورا) عن ترديد كلمة محظوظة بصوت خافت لم يسمعه سوى (مالك) و(ريتاج)، حتى رددت (ريتاج) فور ذلك بأن كل شخص لديه أحد يحبه بالرغم من كل عيوبه.. فهو إذن محظوظ.

***

كان على والد (ريتاج) أن يسافر إلى الولايات الأمريكية لمتابعة بعض الأعمال هناك لمدة شهرين،وقد كان يعمل في الجيش في صغره، والآن يتولى بعض إدارة المشاريع.. استكثرت الابنتان فترة غياب والدهما، وخاصة (ريم) التي تعتمد على والدها أثناء فترة غياب زوجها بالجيش، وبنهاية الأسبوع حل اليوم المقرَّر للسفر.

كانت فترة الشهرين مدة سفر والد (ريتاج) وقتًا كافيًا لإعادة التفكير من جهة (ريتاج) في كيف ستعرض على أبيها الأمر.. تضع بذلك كل الاحتمالات معًا وكيف ستكون النتائج ..

وقد مر الشهران وكان مقرَّرًا أن يأتي الوالد في ظهيرة هذا اليوم.. ذهبت (ريتاج) في الصباح إلى جامعتها، وقامت بالتحدُّث مع زوج

أختها بالهاتف لتوصيه بما سيقوله لأبيها عنها و(مالك) الذي طمأنها هو الآخر بألّا ينشغل عقلها سلفًا.

أنهت (ريتاج) محاضرتها مبكرًا، وأوصلها (مالك) إلى مدينة الزهراء لتشتري بعض إحياجات المترل من هناك كما أوصتها والدتها.. استقبالًا لوالدها

– سأتحدث مع أبي اليوم.. هل ستظنه سيوافق؟

– سيوافق.. وإذا لم يفعل.. هاتفيني، وسأقنعه أنا.

قالها (مالك)، وهو يضحك بشدة لـــ (ريتاج) لتضحك على كلماته هي الأخرى لتتابع قولها:

– كفاك مزاحًا.. عليَّ أن أرحل الآن

– فلتخبريني بكل شيء اليوم..

– ةحسنًا

رحل (مالك) على دراجته وإذا هو ينظر إلى الخلف ليقول لها:

– ريتاج .. أح——ـــــب————ك.

قالها بصوت عالٍ , وبقوة لكي يسمع المارة بل أهل تلك المنطقة فابتسمت (ريتاج) له لحظاتٍ حتى تحوَّل وجهها فجأة إلى ذعر لتنبهه بصوت مرتفع منادية باسمه.

ولم يكن (مالك) ليحدث له شيء إذا لم أظهر أمامه.. كان (مالك) يتفاداني، وأنا أجري بسرعة في الشارع، ولكنه لم يستطع أن يتفادى سيارة (يوسف) الذي كان يلحق بي إثر مشاحنتي معه بمطعم جاردينيو.

فهرولتْ (ريتاج) إلى مكان الحادث محاولة الوصول إلى (مالك)، ولكن شُرطي المرور أوقفها بعيدًا عن الحادث إلى أن تأتي سيارة الإسعاف.. حينها لم تستطع فعل شيء سوى أن سقطت على ركبتيها تدعو الله لكيلا يُصاب حبيبها بشيء.

- أرجوك يا ربي.. لا تفعل هذا بي.. أرجوك لا تدع شرًا يُصيبه يا إلهي!

ظلّت تتوسل ربها بالدعاء غير مغفلة بنظراتها عنه.. حتى جاءت عربة الإسعاف لتقوم بالإسعافات الأولية.. فاستعاد (مالك) وعيه إثر الإسعافات الأولية، ولكن إصابته في بعض أنحاء جسده كانت بالغة.. لتستعد عربة الإسعاف لنقله للمشفى ..

كم تفاءلت (ريتاج) برؤيته عائدًا للحياة! حتى ابتسمت له، ولم تمر ثوانٍ حتى دقَّ هاتفها، وإذا بها تسمع ما يقال لها عبر الهاتف فتنظر لـــ (مالك) بأمل، ولكن سرعان ما تملكها البكاء بسبب ما يقال لها عبر الهاتف.

ظل المُسعف يسألها إن كانت ستصعد مع (مالك) في سيارة الإسعاف أم لا، ولكن كأنها لم تكن هناك.. لترجع بخطواتها إلى الوراء، وتترك المكان وترحل من طريق آخر تاركة بذلك (مالك) يمضي وحده بسيارة الإسعاف.3

الجانب الثالث

وكيف لي أن أنسى الماضي؟!



(11)

لم يمتلكني الندم قط على معرفته سابقًا وإلى الآن .. عندما التقيتُ به كان مجروحًا مثلي .. أو أصدق تعبير هو أكثر مني بكثير .. فكيف لأحد منا أن تكون حياته مستقرة .. وردية اللون .. وذات لحظة يصبح كل ذلك رمادًا ..

إنه بطلي أنا .. وسيظلُّ .. كما أصبحت (ريتاج) صديقتي بعد حدوث الحادثة .. فإنه أصبح بطلي أيضًا .. وكأن هذا الحادث قدره الله ليساعدني..

أفكِّر أحيانًا .. بأنه قد تحدث أشياء سيئة لأشخاص وقد تكون بذاتها تحمل الخير لأشخاص آخرين .. هكذا هي هذه الحادثة بمدينة الزهراء... نقطة تحول كبيرة في حياتي ..

حياتُه هُدمت في هذا اليوم أيضًا .. إنه يقرب لـــ (ريتاج) .. فهو زوج أختها (أحمد) .. فقبل ذلك الحادث بفترة كان بعمله بالجيش لست أدرى منذ متى؟ .. تقريبًا منذ أربعة أشهر أو أكثر ..

وبصباح يوم جديد في شهر سبتمبر الماضي .. بكل هدوء .. لا يكسره غير أصوات الأشجار وتغريدات العصافير .. وكأنه كأي يومٍ عادي.. روتيني.. تستيقظ (ريم) من نومها في الصباح الباكر.. تقريبًا..الساعة السادسة والنصف.. تصلي .. وتوقظ طفليها الاثنين.. (إياد) و(ملك) لكي يستعدا ليذهبا إلى المدرسة ..

تُحضر (ريم) الطعام وتُجهز لابنيها فطورهما .. ثم توصلهما إلى حافلة المدرسة .. ويزداد قلبها اطمئنانًا بجلوسهما فيه .. فتلوِّح لهما بحب شديد حتى يرحلا .. وتخطو بهدوء إلى شقتها حتى تجلس وتكمل فطورها .. ثم تجلس بعضًا من الوقت على الإنترنت .. حتى تُصاب بالملل ..

وما هي حتى تصبح الساعة العاشرة .. حتى تأخذ حافظة نقودها وتذهب للتسوُّق لتشتري الخضراوات بكثرة.. وبعناية.. فهي ربة المترل بمفردها .. وهكذا هي حياهّا تسير بدون عمل ..

فتعود (ريم) إلى المترل وتطهو وتنهي طهيها .. ليعود الملل مرة أخرى لها .. لتقوم بتشغيل التلفاز لعلها تجد فيه شيئًا جديدًا .. ثم تتركه.. هّاتف أمها .. وتتحدث معها كثيرًا .. وعندما تنهي مهاتفتها

معها.. يعود لها الملل .. مثل كل يوم .. تعود للإنترنت مرة أخرى .. وتبحث عن اسم (إياد عبد الحميد) ولكن يسفر عن بحثها العديد من الأسماء .. لتحاول البحث .. ولكن تفقد الأمل في الوصول إليه. .

حتى تملّ مرة أخرى .. فتغلق حاسوبها .. وتذهب لتستريح إلى أن يأتي ابناها من المدرسة ..

وما إن يصل الطفلان حتى يبدلا ملابسهما .. ويتناول ثلاثتهم الطعام .. وبعدها بفترة تقوم (ريم) بالمذاكرة لهما .. وما إن تصبح الساعة العاشرة حتى يقوم زوجها بالاطمئنان عليهم عبر الهاتف .. زوجها الذي لا يراهم سوى مرتين بالعام ..

وهكذا كان يومها .. ليحل اليوم التالي ويسير بملل وبتفاصيل اليوم الماضي .. وهكذا كان يسير كل يوم في حياتها .. ما عدا .. اليوم الذي تذهب فيه إلى والديها لتتناول الغذاء معهما ..

- ريتاج .. افتحي الباب .. من المؤكد إنها أختك.

- حاضر أمي .. ريم .. أهلًا.

-أهلًا .. كيف حالك يا ريتاج ..؟

- الحمد لله .. أين ملاكيَّ ..؟

- ريتاااا

قالها الطفلان .. لقد كانا يدللان خالتهما بذلك الاسم (ريتا) .. وهي لم تكن مجرد خالتهما فحسب .. بل أختهما لتتابع هي ترحيبها بهما:

– حبايب قلبي أنا.

– كيف حالك يا ابنتي ..؟

– الحمد لله يا أمي .. أين أبي؟

قالتها (ريم) وهي تبحث بعينيها في الأركان .. لتخبرها والدها بمكانه.

– إنه في الشرفة .. كالمعتاد ..

– سأذهب إليه ..

– ألن يحضنني حفيدي الحلوين .. اليوم أعددت لكما العديد من الأطعمة الطيبة ..

– جيد جدًا .. جدتي.

كانت (ريتاج) تهاتف (مالك) خلسة بين انشغال أمها مع حفيديها وأبيها مع (ريم) .. كانت (ريم) تحبذ حديثها مع والدها دومًا .. لأنه يعطيها الدعم.

– أبي .. كيف حالك؟

- بخير يا ابنتي .. كيف حالك أنتِ .. وطفلاك .. أين هما؟

- أتيا معي .. أنت تعلم أمي كيف تبهرهما عندما يأتيان إلى هنا.

- وكيف هي أحوال أحمد؟

- إنه مضغوط أيضًا في هذه الفترة .. أنت تعلم طبيعة عمله ..

- الله يعينه ..

حتى ذهبت لهما الأم لتقدِّم لهما بعض من الحلوى والشاي وتتبع الحديث هي بكلماتها .. لطالما الأم دائمًا هي من تشعر بمعاناة أبنائها بدون أن يعبروا عن ذلك.

- ويعينك أيضًا يا ابنتي على تربية ولديك وتحمل مسئوليتهما.

- حقًا يا أمي .. فإن تربية الابنين بمفردي .. مسئولية كبيرة .. فأنا عليَّ أن أكون أبًا وأمًا لهما في ذات الوقت.

- أمي .. متى سنتناول الطعام؟ .. أنا وحفيداك جائعون ..

- أترين .. أختك؟

كانت توجِّه الأم سؤالها إلى (ريم) .. استعدادًا بما ستراه في المستقبل .. لتدافع (ريتاج) عن نفسها.

- ماذا بها ريتاج .. أنا حقًا ابنة هادئة ومطيعة .. صحيح أبي؟

- صحيح.

- دائمًا .. فإن الابنة روحها في أبيها .. حتى ملك .. ستكون روحها في أبيها أيضًا ..

قالتها الأم بسعادة لابنتها (ريم) .. لتتابعها (ريم) قائلة:

- أتمنى ذلك يا أمي .. فإن ابنيَّ ينسيان مع الوقت أن لهما أبًا.

- المهم أنتِ يا ريم لا تنسي في خوض تلك المسئوليات أن لك زوجًا أيضًا.. وعليكِ أن تجعليه أن يشاركِ فيها ..

كانت تلك مقولة الأبِ لابنته وهو ينظر لها بعطف .. حتى جلست العائلة بأكملها على الطاولة ليتناولوا الطعام .. وما إن انتهوا حتى سارعت الأختان في تنظيف أدوات المائدة .. وعندها وضح على (ريتاج) السعادة بملامح وجهها .. لاحظت (ريم) ذلك .. وعرفت من خلال عينيها أنه الحب .. أنه الحب الذي يستحوذ على أختها تمامًا.

- لستُ أدري .. ولكن أرى في عينيكِ شيئًا ما ..

- في عيني .. ماذا يوجد بهما؟

قالتها (ريتاج) ساخرة من أختها وهي تضحك .. لتتابع (ريم) حديثها:

- هذه النظرات عهدتها من قبل .. مؤكد إنكِ تعشقين.

- ماذا؟

قالتها (ريتاج) وهي تستنكر ذلك تمامًا لأختها:

– ماذا ماذا؟! أنت تعشقين.

– ما الذي تقولينه يا ريم؟.. مؤكد لا.. لا .. هذا ليس صحيحًا..

– أتحتالين على أكبر عاشقة، أتحتالين على أختك؟ أتحتالين عليَّ؟..

– حسنًا ..صغيرة الحب تتحدث.. لا تُوقعي بي أبدًا.. لن أتكلم.

ظلت الأختان تتضاحكان .. حتى رحلت (ريم) هي وابناها ومعها أبوها ليصلها لمترلها بأمان .. وما إن ناما الطفلان .. وفي خلال خمس دقائق استرجعت (ريم) سريعًا كيف كانت أكبر عاشقة في عائلتها ..

ليوقظها في صباح اليوم التال صوت ابنها على أنه تأخَّر هو وأخته عن الذهاب إلى المدرسة ..

قامت (ريم) من فراشها سريعًا .. تحضر كل شيء بسرعة .. تسابق الوقت .. ولكنها لم يسعفها الوقت لتلحق بحافلة المدرسة .. حتى أوصلت ابنيها بنفسها إلى المدرسة.. معتذرة إلى مديرة المدرسة على التأخير.. طمأنتها المديرة على مستوى ابنيها الدراسي أيضًا .. وما إن انتهى حديثهما معًا.. حتى كانت تمر (ريم) بطرقات المبنى لتهم بالرحيل.. إلا والتقت به.. مَن كانت تبحث عنه طيلة العشر سنوات الماضية .. إياد عبد الحميد.

وما هي إلا أن تخطو ببطء شديد نحوه.. بينما هو ظل واقفًا كالتمثال..لم تقترب منه (ريم) الكثير من الخطوات..فترددت أن

تكمل خطواتها نحوه..حتى هو من أكمل خطواته نحوها..ليقترب منها..لكي يكذب عينيه .. بأنها ليست هي ..

ولكن صدقت عيناه بما رأت .. فخانته دمعة في عينه.. تؤكّد له إنها ما زالت في قلبه ..

(12)

كانت نظراتها تغمرها الاشتياقِ .. إنه من جعلها تُلقب بالعاشقة الكبرى في عائلتها .. لم تنسَ ولو لحظة في حياتها ذكرياتها معه .. كأن كل شيء حدث بالأمس ..

فقط كان يبعدهما خطوتان .. عندها تذكرت كيف كان اللقاء الأول .. منذ اثني عشر عامًا .. حيث كانت (ريم) تبلغ من العمر الثمانية عشرة .. و(ريتاج) التاسعة من العمر ..

كانت (ريم) منذ الصغر على عكس أختها.. تهتم بأمور المنزل جدًّا..لم يظهر عليها أي اهتمامات أو ميول للأنشطة بجانب دراستها.. حتى جاء الجيران الجدد بنفس الطابق الذي يسكنون فيه .. فتعرفت والدة (ريم) على والدة (إياد).. وبدأ بالانسجام معًا.. يحكون مشكلاتهم ومشكلات الأولاد.. وكانت تسمع (ريم) هذه الكلمات

من أمها بشغف عن هذه العائلة .. وخاصة عن (إياد) الذي ازداد إعجابها به .. فهو طويل القامة . شعره بالغ السواد .. وعيناه أيضًا .. كما أنه طالب بكلية التربية بالعام الأخير .. ملتزم بشدة بمحاضراته ودراسته .. و(ريم) ما زالت متشوقة لمعرفة المزيد عنه .. كانت تنتظره لتراه من خلف ستائر النافذة .. وتراقبه طيلة الوقت ..

كم كانت تتمنى لو تعرف هل تحتلّ شيئًا في قلبه .. أو في عقله.. أم إنه حقًا حب من طرف واحد ..

حتى اعتلى والد (ريم) منصبًا أعلى في عمله في الجيش .. وصممت الأم والابنتان أن يقيمن حفلة صغيرة للأب .. وازدادت الفكرة في رؤوسهنّ بأن يقمن بدعوة جيرانهم بنفس الطابق .. عائلة (إياد) .. ففرحت (ريم) كثيرًا بذلك ..

ارتدت (ريم) أبهى ما لديها .. ولاحظت أختها الصغيرة ما يحدث.. فكانت تبادلها الكلمات بشغب.. وما كانت أسعد لحظات حياة (ريم) عندما تأكدت من حبها أنه ليس من طرف واحد مثلما كانت تسير شكوكها.. وأن (إياد) يبادلها نفس الشعور..علمت (ريم) بذلك عندما تبادلا النظرات وهي تقدم له الحلوى والمشروبات..

اعتلى قلبها الفرح .. طيلة الحفلة .. وعلمت كم هي محظوظة! ولكن ما لا تعلمه أن (إياد) هو أيضًا كان يراقبها من شرفته وهي ذاهبة إلى المدرسة ليسرع بخطواته لكي يسير معها بنفس الشارع ..

وفي أحد الأيام تشجع (إياد) أثناء سيره في أن يستبق الخطوات ليصل لـــ (ريم) ويتحدث معها .. وتفاجأت (ريم) بذلك .. فإن حلمها بات يصير حقيقة .. وها هي بدايته ..

العشاق ينتظرون الليل ليكون مناجيًا لهم ورفيقًا.. ولكن هذين العاشقين كانا ينتظران الصباح بفارغ الصبر ليسيرا معًا .. وليبدآ يومهما ببهجة معًا .. فكانت أحلامهما وردية معًا.

أصبح (إياد) ينتظر(ريم) بعد نهاية يومها الدراسي إثر عودته من الجامعة.. كانت أحلام (ريم) أن يُنهي (إياد) دراسته الجامعية ويصبح مدرسًا .. ويتقدم بطلب يدها للزواج ..

ولكن عادة تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن .. عندما أُعجب أحد الضباط بالجيش خلال إجازته التي يقضيها مع والدته بـــ (ريم) .. أعجب بجمالها.. واهتمامها بشئون المترل .. وازداد إعجابه بها خاصة بعلمه أنها ابنة قائده ..

لم يتراجع فكر هذا الضابط (أحمد) بأن يتقدم في طلب يدها للزواج .. فتقابل مع والدها وعرض عليه الأمر ..

(أحمد) فرصة عظيمة لوالد (ريم) لن تتكرر .. ولكن ما إن عرض الأب الأمر على العائلة حتى اعترضت (ريم) .. وتركتهم في الردهة يتحدثون وذهبت هي إلى غرفتها لتبكي ..

مر هذا اليوم بصعوبة بالغة على (ريم) .. لم تغفل لها عين .. ولا فكر.. ولم تنته من الدموع..كانت تنتظر الصباح ليأتي بلهفة لتتحدث إلى (إياد) .. فما كان منه إلا أن يُطمئنها .. ولكن صار خوف (ريم) حقيقة .. وجاء (أحمد) برفقة عائلته إلى منزل (ريم) .. حينها عرف (إياد) مقدار خطورة الأمر عندما تقابل هو و(أحمد) وعائلته على سلالم المنزل .. فأرشدهم (إياد) للمنزل وقلبه يتمزق .. فكان يومًا عسيرًا جدًّا على المحبوبين ..

لم يستطع (إياد) أن ينتظر أكثر لكي يتخرج ليتقدم لـ (ريم) .. و ظل (إياد) منتظرًا مجيء صباح اليوم التالي .. وفي الصباح لم ينتظر حتى (ريم) هذه المرة بل انتظر أباها .. وعرض عليه الأمر صراحة وهو يمشي معه في الشارع ..

– كيف حالك يا عمي؟

– الحمد لله .. بخير .. كيف حال الدراسة الجامعية معك يا بني؟

– الحمد لله .. لم يعد لي سوى شهر .. وسأتخرج قريبًا ..

– جيد جدًّا .. أنا أحب الشباب الطموحين مثلك يا بني ..

– شكرًا عمي .. ولهذا أتيتُ لأتحدث إليك .. وعلى أمل ألَّا تُخيِّب رجائي ..

– بالطبع يا بني .. أخبرني ماذا تريد؟

- إذا لم يكن لديك مانع؟ .. كنت .. كنت أريد أن أطلب يد ابنتك (ريم) .. من بعد إذنك.

- إبنتي (ريم) .. ؟

- أجل.

- الموضوع ليس بهذه البساطة.. ابني.. أنتَ ما زلتَ بمُقتبل عمرك.. وأمامك الكثير من الوقت لتكوِّن نفسك..وتبني مستقبلك.. وأيضًا مستقبل من ستعيش معك ..

- ولكن ..

- هل لديك منزل مستقلٌّ بك؟ .. هل لديك دخل ثابت يكفي متطلباتك ومتطلبات ابنتي التي تفكر بها زوجة لك؟

ما كان من والد (ريم) أن يقفل باب الأمل في وجه (إياد) من دون أن يعطي أي فرصة له .. صمت (إياد) ونظر للأسفل .. فما كان من الأب أن يُكمل كلامه:

- لا يوجد .. أنا لا أريد أن أحطمك يا بني .. ولكن الواقع أن (ريم) قد تم خطبتها أمس لضابط بالجيش .. عمله مضمون .. وأستطيع أن أطمئن على ابنتي معه .. وعلى مستقبلها ..

- ولكن .. أنا أحبها عمي .. بكل نفسٍ لديَّ سأحميها .. أؤكد لك.

- في يوم من الأيام .. ستُصبح أبًا مثلي .. وستعي حقًا كلامي .. وستعذرني ..

ترك الأب (إياد) .. وانتهى اللقاء بينهما على غير ما كان العاشق يظن .. لم تستطع (ريم) التركيز في دروسها أثناء اليوم الدراسي .. منشغلة البال بما سيقوله (إياد) لوالدها .. هل سيُقنِع والدها كما ترجو أم ستُصبح أسيرة هذا الضابط؟

ومرَّ (إياد) كعادته على (ريم) بالمدرسة أثر انتهائها من يومها الدراسي .. متلهفة بأن تسمع بأن أباها وافق على محبوبها ويحالفها الحظ بأن تُصبح زوجته .. ولكن خاب رجاؤها .. ظلت (ريم) تبكي طيلة سيرها في الشوارع معه وهي تفكر بمخرج آخر ليتزوجا ..

تركت (إياد) وسبقته هي بخطواتها للمنزل .. وكل عزمِها بأن تتحدث إلى أبيها .. في موضوعها هي و(إياد) .. إن لم يقتنع بكلام (إياد) .. مؤكد سيقتنع بكلامها هي .. ولكن كان ذلك أيضًا دون جدوى.. لم يسفر هذا الحديث هو الآخر بنفع لها.. وإنما إزداد حدةً..

- أبي.

- أجل .. ريم .. ماذا تريدين؟

- ماذا كان يريد (إياد)؟

– كان يريد أن يتقدم لكِ ..

– وماذا أيضًا؟..

– وأخبرته أن طلبه مرفوض ..

– ولكن يا أبي أنا موافقة ..

– ماذا؟

– بعد إذنك بالطبع أبي ..

– ماذا تقولين؟ .. أتوافقين على هذا الشاب .. وترفضين عريسًا كاملًا بمواصفاته من كل النواحي .. من أجل ماذا؟

– من أجل الحب يا أبي .. أنا أحبه.

– الموضوع إذن هكذا .. منذ متى يا (ريم)؟

– فقط يا أبي .. فلتسمعني .. اختيار شريك الحياة يجب أن يتم على أساس من التفاهُم والارتياح يا أبي .. وأنا لا أرتاح لرجل الجيش هذا.

– يا ابنتي .. أنتِ ما زلتِ صغيرة .. ولا تعين ما تقولينه .. فقط الحب يأتي بالتعود على الشريك .. وإنجاب الأطفال يا ابنتي .. وأن تعيشي حياة مُريحة وسعيدة.

– حياة سعيدة .. كيف؟ .. كيف يا أبي؟ .. أنا لا أطيق هذا الرجل .. لا أستطيع الزواج به .. أبدًا .. يا أبي ... لن يحدث هذا؟

- أتعاندينني يا (ريم)؟

- أنا آسفة أبي أنا لا أُعاندك .. ولكنها حياتي .. وإن اضطررتُ .. سأتزوج ب (إياد) سرًّا.

لم تُكمل (ريم) جملتها .. حتى وقع أبوها مُغشيًّا عليه .. من أثر أزمة قلبية أُصيب بها .. ذهبت العائلة بأكملها إلى المشفى ما بين بكاء (ريتاج) على أبيها بشدة وانهيار أمها إثر مرض أبيهما المفاجئ .. كانت (ريتاج) تلاحظ كل ذلك فقد كانت تخشى على أبيها كثيرًا .. كان الأمر صعبًا على العائلة .. ولم تستوعب الأم هل هذه هي ابنتها التي قامت بتربيتها أم فتاة أخرى لم تعرف عنها شيئًا من قبل ..

(13)

لم تُربِّ الأم بنتيها قط على هذا النحو بأن الحب يجوز لهن قبل الزواج.. حتى هي.. لم تتزوج والدهما على هذا النحو.. ما أسعدها حينما سمعت أن من سيتقدم لها هو ضابط بالجيش..وما أبلغها سعادة.. وما أقصاها فرحة حظت بها والدهما في صغرها.. لم تتربَّ على نحو أن الحبَ مجاز لها .. ولم تُربِّ بنتيها على هذا إطلاقًا ..

ظل الجميع يبكي على فِراش الوالد بالمشفى يدعُون بأن يُشفى حتى بدأ الأب يستعيد وعيه .. جعل ذلك (ريم) تبكي تحت قدمي أبيها.. وهي تقول سأوافق أبي فقط فلتعُدْ لنا سالمًا .. سعد الأب بقول ابنته عندما أبلغته ذلك فور عودته لوعيه بأنها آسفة وستفعل مثل ما يريد ..

ولكن نتج عن مرض الأب أنه تقاعَدَ عن عمله بالجيش مبكرًا .. فقرَّر أن يفتح مشروعًا صغيرًا ..

تم تحديد موعد الزفاف سريعًا .. وما زالت تسمع (ريم) صوت الطبول حتى بعد أن تذكرت كل هذه التفاصيل وهي تنظر إلى (إياد) بالمدرسة بعد مرور أكثر من عشر سنوات ..

وأخيرًا انبثقت الكلمات من شفاهما .. (إياد) وهو يقترب نحوها:

- هل أنا أحلم .. أم أني على أرضِ الواقع .. أهذه أنتِ حقًا؟

- كم هذه الدنيا صغيرة؟ .. ها هنا نلتقي مجددًا .. بعد كل هذه المدة ..

- اثنا عشر عامًا وشهران وأسبوع ويومان وبِضع ساعات تقريبًا.

قالها (إياد) وهو ينظر إلى ساعته .. لينظر لها بفرح لملاقاها لتتابع هي قائلة:

- كم هذا صعب! أما زلتَ متذكِّرًا ..؟

- كأني تركتُكِ بالأمس

- لا تأخذني بالحديث .. ماذا تفعل هنا؟.. هل لديك أطفال هنا؟

كانت تسأله وهي تتصنع الابتسامة لتحاول أن تعرف عنه ما لم تستطع أن تعرفه خلال تلك السنوات .. ليتابع وهو يضحك:

- واضح إنكِ لم تعودي تتذكرين أني خريج بكلية التربية .. أنا أستاذ هُنا ..

فابتسمت (ريم) .. حتى تابع قوله لها ..

- كما أنني كيف أرتبط بامرأةٍ غيرك؟ ..

حينها تبدلت ابتسامة (ريم) إلى غُصة كادت تجعلها تبكي ولكنها تمالكت ذاها لتوضح له أها تابعت حياها، فتابعت قولها:

- ابناي هنا .. إياد وملك.

- إياد .. على اسمي إذن .. وملك.

قالها ليستزيد ابتسامة واندهاشًا .. حتى أدركت ما ترمي إليه ابتسامته لتتابع هي قولها له:

- ملك .. كما الاسم الذي اخترناه لابنتنا المستقبلية.

- ولكن هي ابنتك الآن .. وليست ابنتي أنا.

- أجل .. لا أحد يعلم ماذا يخبئ له القدر؟ .. حتى وإن خططنا لفعل الكثير ..

- حقًا .. أنتِ خسرتِني .. ولكن حظيتِ بزوج وطفلين ..وأنا .. خسرت كُل شيء.

- إياد .. هذا المكان ليس مناسبًا لمناقشة شيء مثل ذلك ..

- معكِ حق .. أين تريدين أن نلتقي؟..

- نلتقي .. مستحيل .. أنا امرأة متزوجة الآن ولا يصحُّ ذلك.

- أجل .. معكِ حق أيضًا في ذلك ..

فصمت بُرهةً ليتابع قوله وتكاد عيناه أن تبتسم رغمًا عن جبال أحزانه القابعة بداخله ليتابع ..

- فهل هذا سيُعدُّ وداعًا إذن؟ ..

تنهدت ريم وقالت له لكي ترحل:

- إلى اللقاء يا .. إياد ..

وبرحيلها أمامه انبثقت من عينيه نظرة حزنٍ وكأن رحيله عنه يتكرر وسيظل هكذا إلى الأبد .. ولكن تفاؤله طغى على هذه النظرات، فلقد التقى بها أخيرًا وكأنها عادت إلى حياته مرة أخرى.

ظلت (ريم) تمشي بالشوارع .. وهي تبكي بوداعها له .. ولكن لم يمر من الدقائق إلا بضعها هي الأخرى حتى أصبحت تضحك .. آخيرًا التقت بمحبوبها لتصل إلى قمة ضحكاتها إلى أن جلست على أحد المقاعد بالشارع .. كان يعُمها مشاعر متضاربة ما بين بكاء وضحكات .. وسعادة وتعاسة ..

لم تستطع أن تُعد الغداء بعد رجوعها للمترل كالمعتاد .. ولم تستطع أن تهاتف زوجها كالمعتاد أيضًا .. ورحل النوم عنها على غير المعتاد.

مَرَّ عليها نحو خمسة أيام وهي في هذا الحال .. بينما نجحت في الوصول إلى صفحته على شبكة الإنترنت عبر صفحة المدرسة على شبكة الإنترنت .. فكانت تُعزي حالها بمشاهدة صوره لتتذكر بها الماضي ..

وبمرور بعض الأيام اتفقت هي و(ريتاج) بأن يخرجًا معًا ويتناولان الغذاء معًا بالخارج .. لتتابع (ريم) حديثها مع أختها بعد أن تطرقت لموضوع (مالك) لتخبرها بما لا تطيق أن تكتمه.

– لقد رأيت .. إياد.

– إياد .. جارنا القديم.

قالتها (ريتاج) وهي مستفهمة من أختها هل صحَّ ظنُّها أم ماذا؟

– أجل.

– أين؟

– إنه مدرس بمدرسة .. إياد وملك.

– ما هذا الحظ؟ .. لماذا يظهر الآن؟ ..

- لستُ أدري .. هل تعلمين كم كنتُ مشتاقة إليه! أشعر كما أنه سمع نداء قلبي له وأتى إليّ ..

- هل أحد آخر علم بهذا الأمر .. أبوك مثلًا؟

- أمجنونةٌ أنتِ؟ لا بالطبع .. حذارِ أن تخبري أحدًا.

- بالطبع لا .. حتى إن موضوعي مع (مالك) أخشى أن أحادثه به .. أخاف أن يحدُث معه مثل الماضي .. حتى إن صحته الآن لم تعد مثل سابقًا .. فلن يصمد أمام شيء آخر.

- معكِ حق .. ولكن أنتِ ماذا ستفعلين؟.. هل ستظلين هكذا؟

- أبي سيسافر لمدة شهرين .. سأفكر في الموضوع حتى يعود .. وكيف عليّ أن أُقنعه.

- قلبي معكِ يا أختي..كم أودُّ أن يصبح حظُّك أفضل من حظي.. أليس علينا الذهاب.. الوقت تأخَّر .. الحديث غلبنا وتأخرنا.

- صحيح ..

- إياد .. ملك ..

قالتها لابنيها لتدعوهما لترك مرحهما باللعب ليرحلا هما الأربعة .. ولكن ربَّ صدفة خيرٌ من ألف ميعاد .. فكان (إياد) العاشق هو أيضًا جالسًا في هذا المطعم .. وما إن سمع اسمه وسمع صوت (ريم) .. حتى

انتبه عقله .. وثبت نظرته أمامه لترتسم معالم الفرح على وجهه .. فنهض من مكانه بدون تردد .. ذاهبًا إلى حبيبته ..

– ماذا تريدين .. يا أستاذتي ..؟

تنهدت (ريم) عندما رأته فوجهها يقابل وجهه ولكن (ريتاج) ما إن التفتت إلى ورائها حتى تعجبت واستفهمت .. لتقول له:

– أستاذ (إياد) .. هل هذا أنت حقًّا؟

– مرت الكثير من السنوات .. وأنتِ يا (ريتاج) أصبحتِ عروسة الآن.

– صحيح ما أسرع الأيام!

حتى جاء (إياد) الطفل مسرعًا ملبيًا نداء والدته.

– أجل .. يا أمي ..

– هذا أنت .. أهلًا بك يا صغير.

–أهلًا بك يا أستاذ .. أمي هذا هو أستاذي الذي أخبرتُك عنه..

– أجل .. أدركتُ ذلك.

– سأنتظرك هناك يا .. ريم .. سآخذ الطفلين يلعبان هناك .. إلى اللقاء يا أستاذ .. إياد.

– إلى اللقاء يا .. ريتاج .. وحظًّا موفقًا ..

أفسحت (ريتاج) المجال لأختها و(إياد) .. ليتحدثا معًا وكانت تنظر إليهما خلسة كل بضع دقائق .. وكل نظراتها أنها تخشى أن تصبح مثل أُختها ..

– كم كنتُ مشتاقًا إلى نظرات عينيكِ!

– اثنا عشر عامًا .. يا .. إياد .. فترة كبيرة على كل شيء .. قادرة على جعل الحجر يتكلم.

– بحياتي ما كنتُ حجرًا معك .. ولم تكن مشاعري قط جافة لكِ.

– ولكن كنت أنا .. أنا من كنتُ حجرًا .. لم أناضل من أجل حُبنا .. لقد استسلمت .. استسلمت لقرار أبي .. تخليت عن حُبي من أجل المستقبل الذي كان يُخططه لي .. تخليتُ عنك.

– لم يكن بمقدوري فعل شيء أيضًا. لم أكن الزوج المنشود لأبيكِ..

– تتخيل .. هل هذا خطؤنا حقًا ..؟

– لستُ أدرى ..؟

– في بدايات زواجي .. كنتُ ألوم أبي من أعماقي على ما فعله بي .. ولكن الآن أعذره .. بعد أن أصبحت أُمًّا أدركتُ حقًا .. كم تكون المسئولية! مسئولية تربية الأبناء .. والاهتمام بهم .. تأمين مستقبلهم .. منذ ولادهِم .. حتى وإن أصبحوا مسئولين ..

- لستُ أدري بأمور الأبوة أو الأمومة هذه ..

- ليس معقولًا .. أحقًّا لم تتزوج بعد.. كنت أظنُّك تمزح بالمرة الماضية.

- هل تظنين أني أمزح بحبي لكِ؟!

- إياد .. أرجوك ..

- ماذا؟ .. أعلم أنك امرأةٌ مُتزوجة الآن .. ولكن ما أريده منكِ أن تتأكدي أن قلبي سينبض دائمًا لكِ .. ولكِ وحدك

ذهب (إياد الصغير) لإحضار والدته بعدما قالت له (ريتاج) إنهم تأخروا في العودة ..

- أمي .. ألن نذهب؟ ..

- إذن عليَّ الذهاب الآن يا .. إياد .. إلى اللقاء.

- متى سأراك ثانية؟ ..

- ثانية .. لا أظن ذلك .. أنا ما أخبرك ذلك .. عليك أن تمضي بحياتك .. فلقد مضيتُ أنا منذ زمن .. وعليك أيضًا أن تتابع حياتك.

رحلت (ريم) بينما (إياد) ظل يُحدِّث نفسه سرًّا بعد مغادرتها ..

- كيف تطلبين مني أن أمضي بدون نفسي وروحي .. لا تعلمين كم أنا أحبك!

كان غريبًا أنها أيضًا تحدث نفسها مثله .. لتمضي مع إبنها وهي تقول بصوتٍ لا تكاد شفتاها تُسمعانها.

- وأنا أيضًا ما زلت أحبُّك.

انتهى لقاؤهما على هذا الوضع ما بين ندمٍ على الماضي .. وعتاب.. حبٌّ .. وألم .. ولكن أيضًا تعددت اللقاءات كما كانت لا تظنها (ريم) .. وكما كان يرجوها (إياد) .. ما بين المدرسة والمطاعم والأسواق .. وهي تشتري أحد طلبات منزلها .. كان هو الآخر موجودًا بشكل تقريبي معها في كل مكان كانت تذهب إليه .. وأصبح جزءًا من حياتها كما كان سابقًا ..

(14)

لم تستطع أن تتخلى عن مشاعرها نحوه .. بعد أن حُرِمت منها .. وما جعلها تريد الانغماس في ماضيها كما كانت.. هو تقرب (إياد) لها بكل ما تحبُّ كما كانا يفعلان في الماضي .. وما زادها تقربًا منه .. جنونه .. بالقضاء معها المزيد من الوقت .. بينما هي كانت ترى ذلك إشارة من الله .. أن ما تفعله خطأ .. إلا هو الذي لم يتح فرصة لكي يفكر هو بنفس الطريقة.. لو سيسمى سارقًا بتأمله سحر ابتسامتها .. وهي حتى لو قيل عنها سارقة مثله .. فقد قبلت أن تسرق تلك اللحظات التي لم تكن من حقها لتضيفها إلى حياتها ..

لم تشعر (ريم) بسرعة مرور الأيام .. فقد كانت فيما مضى قبل أن تراه مجددًا يعمها الشعور بالملل..وإنما الآن وقد عاد إليها من تحب.. مجددًا .. فقد عادت إليها الأيام الجميلة مرة أخرى .. ولكن الأيام الجميلة ما أسرع أن تمر .. فلم يعد على قدوم (أحمد) من عمله بالجيش سوى أسبوع .. ليبيت هذا الموضوع يشغل (ريم) لتتحدث فيه مع (إياد)

- ما رأيك يا .. ريم .. هل أشتري هذا الصنف أم هذا ..؟

- أفضل هذا .. هذا صحي أكثر ..

- كم أنتِ تذكرينني بأمي ..

لتقترب منه (ريم) بعض الخطوات وهي تبتسم بشدة لتتابع قولها:

- فقط .. عندما يأتي (أحمد) سأطلب منه الطلاق ..

- أنتِ مجنونة.

- لا .. مجنونة لأني ظللت هكذا لأكثر من اثني عشر عامًا .. لم أعد أريد أن أضيِّع أي ثانية أخرى من حياتي بدونك.

- حقًا

- أجل.

- وابناك؟

- أظنُّ أن أُلقّب بمطلقة أفضل من أن أُلقّب بالخائنة .. كل مشاعري تقريبًا لك أنتَ .. كيف لي أن أنظر في عينيه الآن وأنا متعلقة بك الآن.. هل تظن بأن سيكون بمقدوري تربية ابنيَّ هكذا .. وأيضًا .. لقد تحملت أكثر من عشر سنوات بتربيتي لهما بمفردي .. لم يعتادا وجودي أنا وأبيهم معًا .. لا أظنه سيشكل فرقًا بالنسبة لهما .. إذا طُلقنا

ليختم لقاءهما هذا بابتسامة أملهما المستقبلي المرجو تحقيقه

مر الأسبوع سريعًا.. وعاد (أحمد) إلى منزله وارتمى الطفلان بحضنه.. ولكن (ريم) رحبت به بفتور .. جاءت (ريتاج) و(أمها) يسلمان عليه وتناولوا الغذاء معًا في هذا اليوم .. كان الكل سعيدًا ما عدا (ريم).. أبلغت (ريتاج) أختها بأنها أخيرًا ستخبر أباها عندما يأتي بحبها لـــ (مالك).. سعدت (ريم) كثيرًا .. وكادت تخبرها على ما تعزم أن تفعله هي الأخرى .. ولكن كلما كادت تخبر أختها تقاطعهما أمهما تارة و(أحمد) تارة أخرى .. وأيضًا ترددها.

ظلت معاملة ريم لزوجها بضعة أيام بفتور.. ليس كالمعتاد منها مع (أحمد) بل هو بدأ يشعر بشيء غريب نحوها..وكم حاول أن يفهم ماذا يحدث معها.. ولكن دون جدوى..حتى جاء صباح أحد الأيام .. فخرجت مبكرًا .. لتصل ابنيها لحافلة المدرسة .. وعندها قررت أن تخبر زوجها فور عودتها للمنزل وأن تترك ترددها جانبًا ..

كان غريبًا هذا الحظ .. فهو ذات اليوم الذي سيعود والدها من السفر.. وهو ذات اليوم الذي تجمَّعت فيه الكثير من الأقدار وتفرقت الكثير ..

تركت (ريم) ترددها جانبًا وعزمت على إخباره .. عادت (ريم) لمنزلها .. وفور عودتها وإغلاقها لباب المنزل .. نهضَ أحمد من مقعده ليحتضنها .. ولكنها بدأت تبتعد عنه شيئًا فشيئًا .. لتلتمس في أقرب مقعد لها القوة بينما خانتها قدماها بالوقوف .. ليجلس هو أيضًا أمامها .. لتنظر له:

– أريد أن أتحدث معك بموضوع مهم.

– ما بكِ يا ريم؟ هل كل شيء بخير ..؟

– تقريبًا ..

– هل الطفلان بخير ..؟

– أجل .. أجل .. الطفلان بخير ..

– ما بكِ .. ريم .. أنتِ لستِ كالمعتاد .. ماذا يوجد ..؟ أنتِ بخير؟

– لقد عاد مرة أخرى

– من؟

– من كنت سأتزوجه منذ اثني عشر عامًا ..

– أكان متقدمًا لكِ شخص آخر .. غيري؟

قالها وهو يضحك باستغراب .. فلم يكن قد سمعه من قبل .. لتتابع هي:

– أجل .. كان يحبني كثيرًا .. لم يكن مستواه كما كان يريده والدي ولهذا رفضه.

– كان يحبك كثيرًا ..

– وما زال

ظل أحمد صامتًا ينتظر من زوجته متابعة حديثها التي بدا عليها التوتر:

– وأنا أيضًا أحببته .. أبي لم يفهم مقدار حبي له ..

– ولماذا تخبرينني كل هذا الآن؟ .. هل ما زلتِ تحبينه ..؟ أخبريني ريم.

اشتدت نظرات الاتهام في عيني الزوج المخدوع من قبل قلب زوجته.. وأيضًا (ريم) لم تكتفِ بالصمت فنهضت من مقعدها وتابعت حديثها له بدموع ممزوجة بألمٍ ينتابها من أعماقها أيضًا:

– أنا آسفة أحمد..كان عليَّ أن أخبرك سابقًا..لن أستطيع مواصلة حياتي على هذا النحو بدون أن تعلم.. وبدون أن أخسر حياتي .. أرجوك .. فلتدعنا ننفصل بهدوء.

أخذ يُحدِّق (أحمد) بعينيها .. غير مصدق ماذا يحدث .. منذ غضون دقائق كان منزله يعمه الحب .. نظر لها بنظرة حزن .. نظرة إلى امرأته كيف لها أن تبيع عشرة حياة .. بل حياة بأكملها .. هكذا بكلمة ارتأت أنها الحل لهما ..

كيف قدرت محبوبها بأثمن الأشياء على زوجها الذي لم يدخل قائمة الحسبان حتى .. بل اعتبرت طلاقها منه هو الخلاص ..

كضابط جيش .. وأغلبيتهم .. فإن كرامتهم فوق كل شيء .. وكأي إنسان طبيعي علم بأنه لم يعد مرغوبًا به .. كان عليه أن ينفذ طلبها وبمنتهى البساطة .. ما كان منه سوى أن ينهض من مكانه هو الآخر ليقف أمامها مباشرة وببرود شديد وبوجه ثابت دون أن ينظر إلى عينيها:

- أنتِ طالق .. كل شيء انتهى ..

قالها لها بكل هدوء.. لتختم كل ما بينهما .. ولكن من وجهة نظري أنا هي لم تفكر سوى بمحبوبها الذي حُرمت منه بالسابق وظنت بأن القدر أعاده إليها، فتخلت عن هدوء عائلتها واستقرارها من أجله.. وهو لم يفكر سوى بكرامته.. لو أعطا الاثنان المزيد من الوقت ليفكرا ويعيدًا حساباتهما في صالح ابنيهما لربما أفادا ابنيهما كثيرًا .. أو حتى فلن يصبحا مثلي في يومًا ما .. ابنان بلا مستقبل ..

أخذت (ريم) حقيبتها وأوقفت سيارة أجرة سريعًا .. هاتفت (إياد) وأخبرها بأنه سيقابلها بعد عدة دقائق في مطعم جاردينو بمدينة الزهراء.. وتقابلا .. وأثناء حديثها له بأنها تطلقت من (أحمد) وأنها ستذهب إلى منزل والدها .. كان بالمقابل يعلو صوت (يوسف) وهو يحادثني ومن ثمّ رحيلي عنه في المطعم ..

لم تعرفنا (ريم) بالطبع .. لقد كنا غرباء .. ولكن ما إن سمعت كلماتي لــ (يوسف) بأن عليَّ أن أفترق عنه وهو بالمقابل كلماته التي غلبها رجاؤه لي بالبقاء حتى تذكرت حديثها مع (أحمد) .. وكيف كان غريبًا منه أن يتركها ببساطة بدون أن يصدر منه أيُّ مشاحنة أو أحاديث في حقّها .. كان عليه أن يتحدث سواء بالخير أو الشر ..

شردت (ريم) عن أحاديث (إياد) بسبب ذلك .. حتى قررت (ريم) الرحيل .. فأوقفت سيارة أجرة للذهاب إلى منزل والدها .. ولكن سرعان ما توقف الطريق .. سألت (ريم) عن السبب من سائق السيارة .. فأخبرها بأنه حادث مروري بالأمام .. ذلك الحادث الذي تسبب فيه تصادم (يوسف) بـــ (مالك) .. وما هي إلا عدة ثوانٍ حتى هاتفتها والدها .. فبكت بالسيارة وأخبرت السائق أن يذهب إلى المشفى القريب من المنطقة

(15)

التفَّ بعض من كان بالشارع الخلفي للحادث حيث سقطت أرضًا .. فالتفوا حولي لينقلوني إلى المشفى القريب .. وما إن وصلت حتى تم وضعي على إحدى النقالات بالمشفى وأنا فاقدة الوعي تمامًا .. لتدخل من الباب معي.. (ريم) .. وهي مرتعبة تمامًا .. لقد كان أقرب مشفى لنا .. أنا و(مالك) الذي أُخذ إلى غرفة العمليات وسرعان ما أتى إليه جده ما إن علم على الهاتف من (ريتاج) ما حدث .. فأتى بسرعة شديدة وهو يبكي فاقدًا السيطرة على ذاته .. مرتعشًا .. سائلًا كل ممرض يقابله .. حتى طمأنته إحدى الممرضات بأنه بغرفة العمليات وأي مستجدات ستخبره بها .. ولكن لم يهدأ له جسد فظلَّ واقفًا ليبحث عن (ريتاج) .. فهو متيقن أنها ستكون معه .. ولكن ازدادت حيرته بعدم عثوره عليها ... حتى سمع صوت إحداهن منادية بهلع بالغ وبصوت صارخ:

– ريتاج.

تلك النبرة المفزعة كانت كفيلة بأن يهتز لها عوالم هذا العجوز .. لتهرول عيناه بحثًا عنها قبل قدميه .. كانت صرخة (ريم) لأختها واقترابها بسرعة منها جعلته يهتدي إلى مكان (ريتاج)

- ريتاج .. ماذا به أبوكِ فلتخبريني؟

قالتها (ريم) وقد سبقتها الكثير من الدموع على وجهها .. لتجاوبها أختها:

- لقد هاتفتني أمي بأنه فَقَدَ الوعي في المنزل فور عودته من السفر، وعندما وصلت إلى هناك فسرعان ما نقلناه إلى هنا .. الأطباء يقولون إن أصابته جلطة بالقلب مرة أخرى .. إنه بغرفة العمليات الآن.

(ريتاج) لم تكن فقط تبكي وهي تحكي لأختها ما حدث بل وكأنها ستلحق بوالدها .. حتى اقترب جد مالك منها .. كان يظن في بداية الأمر أنها تبكي على حفيده .. حتى بدأ يلاحظ أن الأمر لم يكن مقتصرًا على حفيده .. ليقول لها:

- ريتاج .. كنت أبحث عنكِ .. ماذا يوجد يا صغيرتي ..؟

- إنه أبي .. يا جدي ..

ظلت تبكي بشدة بل انهارت ليحتضنها الجد مرددًا:

- لا تقلقِي .. ستطمئنون عليه قريبًا

لترفع رأسها وكأنها تودُّ أن تتأسف له عن انشغالها عن أمر (مالك) لتقول له:

- كيف حال (مالك) الآن؟

- لقد أخبروني أنه ما زال بغرفة العمليات ..

- أنا لا أستطيع .. لِمَ هذا اليوم هكذا ..؟

ما كان من (أحمد) سوى أن ينظر لهما وبالأخص نحو (ريم) وظل ينظر أكثر فأكثر .. إلى أن اقتربت منه والدة ريم فلاحظت نظراته حتى وجدتهما والدتهما .. فقدمت نحو (ريم) بسرعة وصفعتها على وجهها بدون تردُّد .. ليندهش الجميع .. وخاصة أختها وجد مالك .. أما (أحمد) فوجد في نظراته للأرض ملاذًا له مما يحدث .. بينما الجميع ظل مترقبًا لِمَ هذه الأم فعلت هذا؟ ظلت عينا (ريتاج) مستفهمتين عن سبب ما يحدث:

- هأنتِ .. ظهرتِ أخيرًا.

- أمي.

قالتها (ريم) مستعطفة والدها .. حتى تابعت (ريتاج).

- أمي .. ما الذي تفعلينه .. لِمَ صفعتها؟

- لِمَ؟.. تقولين لي لما؟ إذن فلتجعلي أختك تحكي لِمَ؟

صمتت الأم بُرهةً حتى تابعت:

- أظنك لن تقدربي على قول أي....

كانت توجه ذلك السؤال نحو (ريم) حتى نظرت لـــ (ريتاج) متابعة ما تقوله:

-أبوك بغرفة العمليات بسببها .. لِمَ؟ .. لِمَ فعلتِ ذلك؟.. لِمَ؟.. ألم تتعلمي بعد من أخطائك؟

كادت الأم تصاب بجلطة هي الأخرى .. لولا أن (ريتاج) قامت بتسنيدها .. محاولة تهدئتها:

-أمي أرجوكِ .. فلتهدئي ..

احتضنت (ريتاج) أمها وأخذتها بعيدًا عن (ريم) مستفهمة بنظراتها لأختها ما الذي حدث فجعل أباها في هذه الحالة؟ ..

بعد عدة دقائق شرح (أحمد) لـــ (ريتاج) أن سبب أزمة أبيها هو معرفته بأمر طلاقه هو وأختها وظهور حبيبها السابق .. (ريتاج) التي غلب شعورها بالخوف على والدها على أي مشاعر أخرى .. حتى زاد لديها شعور آخر قوي .. وهو كره (إياد) .. الذي كان شعلة مرض أبيها سواء بالمرة السابقة أو الحالية .. حتى تابعت حديثها مع (أحمد):

- لم أعهد من إياد منذ صغري سوى المشكلات.

- أنت تعرفيه.

- أجل .. لقد كان يحب أختي منذ عشر سنوات أو أكثر لست أدري .. لم يكن حبهما قويًا لدرجة أن يلاحظه أحد .. لست أعرف هل هما عيناي الطفوليتان حينها اللتان لم تفهما هذا الحب أو ماذا؟ ..

تنهدت (ريتاج) لتتابع قائلة:

- لقد تأذى والدي بشدة حينها.

- ولِمَ لم يتزوجا؟

سألها (أحمد) مندهشًا .. حتى تخلت (ريتاج) عن مواصلة نظراها نحوه لتنظر أمامها مباشرة لتجاوبه:

- أبي لم يرَه الزوج المناسب لها .. اعترض عليه فور تقدمه لها .. كل ما أتذكره أن (ريم) اعترضت على رفض أبي لـــ (إياد) مما سبب معه هذه الأزمة سابقًا .. حتى تقاعد عن الخدمة في الجيش بسبب أن صحته لم تعد تتحمل ضغوطًا أكثر.

- أنا أسف ريتاج .. أختك لم تُتِح لي فرصة لفعل شيء آخر ..

- أعلم.

- وها هي حطمت بحبها منزلنا .. وأبوها أصبح طريح الفراش من أجله.

- من أجله

من أجله كلمة قالها (أحمد) بالكثير من الغِل والكُره نحو هذا الشخص الذي لم يرَه بعد..من أجله كانت تلك الكَلمة كفيلة أن تعيد(ريتاج) إلى عالمها..وكأنها كانت تتذكر شيئًا ضائعًا منها..لتقولها، فيبدو لـــ (أحمد) أنها تؤكّد كلامه بينما هي فقد تملّكها التوتر.. لتتابع قائلة:

- اعذرني أحمد.. يجب عليَّ القيام بشيء.

نهضت (ريتاج) تبحث عن جد مالك، وفتحت باب غرفتي بالخطأ فوجدتني بها .. حينها كنت نائمة .. لتتحدث مع زوجة خالي (ليلى) والطبيبة.

- أنا آسفة .. أستاذة ليلى.

قالتها (ريتاج) وهي مندهشة من رؤيتها .. لتتابع زوجة خالي قولها في دهشة أكثر منها وقد خَيَّل لها ظنها أن ريتاج تعلم بأمري.

- ريتاج .. أجئتي تطمئنين على لينا؟ .. لم أكن أعلم أنكما تعرفان بعضكما البعض.

-في الحقيقة يا أستاذتي لم أعلم أن لينا مريضة .. كنت أبحث عن شخص آخر .. على كل حال حمد الله على سلامتها.

- شكرًا لكِ ريتاج .. ولكن من لكِ مريض هنا.

- أبي .. وكنت أبحث عن مالك أيضًا .. لقد تأذّى بسبب حادث مروري.

- مريض الحادث المروري .. لا تقلقي إنه بخير .. فلقد نُقِلَ من العمليات إلى غرفة بنفس هذا الطابق، وبإذن الله صحته ستتحسن .. لا تقلقي.

قالتها الطبيبة لــ (ريتاج) لتطمئن .. بينما تابعت زوجة خالي في قلق مستفهمة عن حال والدها:

- قدر الله ولطف .. أخبريني كيف هو والدك الآن؟

- لقد أصابته أزمة قلبية .. ولكن ربنا نجاه .. الحمد لله هو بخير الآن.

قالتها (ريتاج) كأنها تود أن تهرب من حال والدها الذي انقلب فجأة .. بل حال حبيبها هو الآخر .. ليعم الصمت أرجاء الغرفة لثوانٍ .. لتتابع ريتاج قولها.

-عليَّ الذهاب الآن .. حمدًا لله على السلامة لــ (لينا) مرة أخرى.

ظلت زوجة خالي تنظر لي بحزن وأنا نائمة .. على حالي .. بينما (يوسف) قد أُخِذَ إلى قسم الشرطة للتحقيق معه .. ظل (يوسف) يبكي ويرتجف بين السجناء ما بين لصٍّ وقاتل وآخرين .. وسرعان ما بدأ مفعول المخدر يزول من جسده .. وكان يحتاج لجرعته التالية سريعًا .. فجُنَّ جنونه .. حتى أعطاه أحد السجناء حفنة صغيرة من المخدرات التي كانت بحوزته هو الآخر .. في مقابل أن يرد له ثمنها عند خروجهما .. فوعده (يوسف) بأن سيستزيده بالكثير من المال فور بيعه لسيارته.. وثق هذ السجين بكلماته .. وخاصة أن (يوسف) يبدو على مظهره أنه من أحد أبناء الوجهاء ..

وبتناوله لها حتى وكأن الحياة عادت إليه مرة .. آخذًا شهيقًا كبيرًا ليمتزج بمتعتها الكاذبة.. مستقلًا بجلوسه منفردًا في إحدى زوايا السجن ليمر ليله في هدوء.

هدوء هو ليله كان .. بينما نحن.. أنا .. مالك .. جده .. أسرة ريتاج .. بل (ريتاج) هي من كان ليلها أسوأ من الجميع .. فلم تغفل لها عين بل، تورمت عيناها من كثرة البكاء على محبوبيها .. والدها .. ومعشوقها (مالك) .. فكانت (ريتاج) بين الغرفتين تبكي عند أبيها في معظم الأحيان وعند (مالك) خلسة من والدهما .. تبكي وهي تصلي من أجلهما ..

أجل جد (مالك) التحقيق في حادثته إلى أن يعود (مالك) إلى وعيه ..

ذهبت زوجة خالي لتطمئن على والد (ريتاج) وتُلقي عليهم التحية.. وبوجود (ريتاج) فعرفتهما إلى بعضهما البعض.

- صباح الخير.

- صباح النور.

قالتها والدة ريم .. لتتابع ريتاج سريعًا قولها:

- أهلًا بكِ أستاذه ليلى .. أمي، هذه أستاذتي وعميدة كُليتنا.

- أهلًا بك سيدة ليلى.

قالتها والدها وهي تصافحها .. مبتسمة كل منهما للأخرى .. لتوجه زوجة خالي نظرها نحو والدها متابعة قولها:

- كيف حالك يا أستاذ عبد الرحمن؟

- الحمد لله.

حتى دخل أحدهم الغرفة .. ولم تتخيل أنها ستجد هناك هذا الشخص بعد هذه الفترة الطويلة من سلوكه في دربه .. عندما نظرت إلى (أحمد) سعدت بشدة .. لم تنسَ ملامحه بعد مرور هذا الزمن .. فكان تلميذها النجيب سابقًا .. مثلما هو أصبح بطلي أنا ..

– لطالما كان هذا الوجه معلقًا بذهني إلى الآن.

– الأستاذة ليلى .. أستاذتي.

– أحمد .. كم سعدت بلقائك .. كيف حالك؟

– بخير الحمد لله .. ولكن أستاذتي كيف علمتِ بأمر حماي؟

– لستُ وحدك ممن أكون أستاذتهم .. ريتاج أخبرتني .. فابنة أخت زوجي مريضة هنا أيضًا.

– وكيف حالها الآن؟

قالتها والدة (ريم) بقلق بالغٍ، وكأنني أنا أيضًا ابنتها .. حتى تابعت زوجة خالي حديثها لتطمئنها:

– بخير .. إنها بخير ..

لا أظن تلك الكلمة التي كانت ترددها دائمًا (إنها بخير) ترددها باقتناع .. ربما كانت تود ذلك أن أكون بخير .. ولكن لم أكن .. ولم أسِر نحو هذا الطريق بل نحو الأسوأ .. كانت تقولها (ليلى) بابتسامة زائفة لتتابع:

– الحمد الله أني اطمأنتُ عليكم أيضًا .. إني هنا بنفس الطابق .. إذا احتجتم إلى أي مساعدة فأنا موجودة.

– شكرًا لك .. والله يطمئنك على ابنتك إن شاء الله.

ليختم والد (ريم) هذا الحديث بهذا القول .. حتى ذهب (أحمد) مع أستاذته خارجًا هو و(ريتاج) بينما (ليلى) التي لم تستطع أن تخفي عليه ما يحدث معي بعد سيرهما عدة خطوات .. لتنظر له وعيناها تملؤهما الدموع .. كانت بحاجة ماسة لأي أحد أن يساعدها لإنقاذ ابنة أخت زوجها.. لتسرد له قصتي منذ وفاة أمي وإلى تلك اللحظة.. تلك النظرات الممتلئة بالشفقة من أعين (ريتاج) نحوي ونحو (يوسف) ومصاحبتها بنظرات زوجة خالي التي لم يكن سوى للحزن أن يتملك منها .. ليعيداه كما كان .. ليعيداه نحو عطفه.

هو الذي يصعب فيه الوصف بالكلمات .. هو الذي رحب بأي مساعدة سيقدمها لنا فذهب معها هو و(ريتاج) نحو غرفتي .. هو أراد المساعدة بمجيئه .. أما (ريتاج) فكان الهرب إلى غرفتي ملاذها .. هربًا من والدها ومن (مالك) الذي لم تطمئن عليه بعد ولم تَرَه بعد ..

المخطئة الكبرى في حق الجميع .. (ريم) .. كما صار لقبها .. فقد تعرفت إلى جد مالك بعد صفعها من أمها .. فقد هوَّن عليها ببضع من كلماته الهادئة .. ولأن (ريم) تعلم عن (مالك) مسبقًا، ولكن لم تَرَه من قبل فقد كانت تذهب إليه بضع مرات هي الأخرى لتطمئن عليه .. فكانت أفضل من أختها اطمئنانًا على حالة (مالك) لتعاود بذلك طمأنة أختها بذلك .. وحين كانت (ريم) والجد يمشيان بالطرقات لم تستطع أن تسرد له قصتها .. عتابها لنفسها كان كفيلًا بأن يجعلها تصمت .. معذبة لنفسها بسبب تسرعها بعذابها للجميع

- لا تقلقِي .. والدك سيكون بخير .. فلتطمئني.

- أعلم ..

لتصمت برهةً ثم تتابع:

- بل لا أعلم شيء .. أنه لن يكون أبدًا بخير .. ربما جسديًا سيسترد صحته ولكن نفسيًا لستُ أعلم.

نظر لها بصمت ليتابع مبتسمًا قائلًا لها:

- ما حدث قد حدث الآن .. وبالرغم أني لا أعلم عن أمرك شيئًا .. ولكن أنا واثق إنكِ شخص طيب .. أنتِ طيبة يا ريم.

لتبتسم له وقد صاحبتها قطرتان من عينيها متأثرةً بما يقوله

- فقط الطيبون هم من يرون كل شيء طيب ..

لينقلب وجه (ريم) إلى حزن برؤيتها من بعيد لــ (أحمد) و(ريتاج) وزوجة خالي وهما متجهان نحوهما .. فبادلها (أحمد) بتلك النظرات الحزينة التعسة كلما اقتربت خطواتهم منهم .. حتى توقفا .. لم يكن لقاءً حميدًا على قلب المطلقين بقدر ما كانت مفاجأة سارة للكبيرين بالسن ..ليقفا برهةً ..

- ليلى.

قالها الجد غير مصدقٍ لنفسه .. غير مصدق برؤيتها .. ليضحك متناسيًا كل شيء.

-عادل .. هذا أنت! ..

لتضحك هي الأخرى .. ربما كانت مشاعرهما في تلك اللحظة متماثلة.

– أهذه الدرجة الدنيا صغيرة؟

– صغيرة جدًّا.

وقف ثلاثتهم الباقون لا يعلمون ما يحدث .. متعجبين من ردة فعلهم التي عمها الفرحة البالغة .. ليمضي كل شخص بطريقه وكلٌّ منهم مرددًا اسم الآخر..

وما إن دخلا غرفتي .. ظلت (ريتاج) مبتسمة وهي تحدق في عيني زوجة خالي بضع لحظات ثم لــ (أحمد) الذي كان متأملًا بنظراته لزوجة خالي تارة ولي تارة أخرى ..

– إذن يا أستاذتي .. أتعرفين جد مالك؟ ..

– ريتاج.

قالها (أحمد) بحزم لــ (ريتاج) .. فلقد التمس فيه شيئًا من تخطي الحدود مع أستاذته

- حسنًا .. سأصمت.

قالتها وهي تبتسم .. وضح لي إنه ليس مجرد زوج أختها بل أخوها الأكبر الذي عندما يقول شيئًا يحترم .. بل وضح عليها أنها تعزه وبشدة .. لتضحك زوجة خالي متابعة قولها ..

- لا بأس أحمد .. كيف أن يتجاهل الشخص أجمل لحظات حياته.

بريق في عينيها أعادها لهذا الزمن الذي كانت تتحدث عنه .. ذلك البريق الذي أثر فيَّ .. لأشاركهم بالحديث بالرغم من مقدار مرضي.

- حسنًا .. يوجد الكثير من الأسرار هنا ..

- كنت وقتها يا لينا مجرد ليلى الفتاة الصغيرة ..المرحة .. والدتك وأنا وسلوى صديقتنا الثالثة .. كنا أعز الصديقات .. كنا بنفس العمر تقريبًا .. وتمت خطبة سلوى إلى رجل أعمال يكبرها بعشرين عامًا ..

-عشرين عامًا .. أليس كثيرًا؟

قالتها (ريتاج) وهي رافعة حاجبيها مصاحبة باتساع حدقتي عينيها اندهاشًا .. لتتابع زوجة خالي:

-إنه كان حلم أي فتاة.. رجل ذو نفوذ ومال من وجهة نظر سلوى، ولكن ما جذبني نحوه هو اتزان عقله ومعاملته للأمور بحزم ..

وعقل متطلع .. لن أكذب عليكم إذا لم أقل إني بدأت أقلده في كل شيء .. تصرفاته .. واتباع كل ما يقرأ ..

الجميع ممن بالغرفة حتى الممرضات كانوا يستمعون إلى زوجة خالي ونظراتهم تعمُّها الفرح والترقُّب لمتابعة هذه القصة الرومانسيَة التي كانت تحدث من قبل ميلادهم بسنوات وسنوات .. وبالغرفة الأخرى كان جد مالك يحكي لـــ (ريم) و(مالك) عن (ليلى) أيضًا .. فيتبع لهم ..

– لم أرَ فتاة أكثر مرحًا منها .. عقلها مرن ومتفتح .. كانت متلهفة إلى القراءة بشغف .. كنت أمدُّها ببعض الكتب التي لديَّ .. لم تكن أجمل النساء التي عرفتها البشرية .. ولكنها حورية من الجنة بعيني أنا .. شعرت بأنها تفهمني كثيرًا وكانت تعطيني رأيها بالكثير من أعمالي ومشاريعي .. لم أرَ حتى سلوى كانت مهتمة لذلك كما كانت ليلى مهتمة بمتابعة هذه الأمور معي ..

ليتنهد الجد ويصمت حينها لبرهة حتى أخذ شهيقًا ليتبع كلامهم:

– وقبل ميعاد الزفاف بيوم واحد أردت الهرب .. الهرب معها.. ولكنها رفضت.

لتتابع هي .. وكأنهم جسد واحد ونفس واحد .. يحمل ذات الكلمات.

- كان عليَّ أن أرفض .. لا أستطيع أن أسرق خطيب صديقتي وأهرب معه .. ماذا سأقول لها؟ .. ماذا سيكون موقفي أمام الجميع؟

- ظلت هي موجودة بحفل الزفاف .. لم يكن كلٌّ منا سعيدًا .. كنت أشعر بنبضات قلبها وقد كادت تتوقف .. وفجأة لم أرها في الحفلة .. اختفت .. ولم أرها منذ تلك اللحظة حتى اليوم.

- إن ظللت بالحفلة كان سيظهر على وجهي ما أخشى أن يعرفه الجميع .. وما أخشى أن تعرفه صديقتي .. فرحلت .. رحلت عن المدينة وسافرت لأكمل دراستي وهناك التقيت بـــ سمير خالك يا لينا مع والدتك .. تزوجنا بعدما تزوج عادل وسلوى بـــسبع سنوات .. ولكنني لم أستطع أن أنساه إلى الآن .. بالرغم من زواجي بسمير إلا أني لم أنسَ يومًا عادل.

نظرت (ريتاج) سريعًا إلى (أحمد) بعد تلك الكلمات التي قالتها زوجة خالي مباشرة .. نظرت له نظرة خوف .. لعله يظن في (ريم) ذلك أيضًا .. ولكنه قد خطر على باله مثلما توقعت (ريتاج) .. بل أيقنت ذلك عندما نظرت إلى عينيه وبادلها هو بنظراته .. لتخفض نظراتها بعيدًا عنه في خجل .. وربما أخفضتهما كما لو ودت أن تستطيع أن تغير مما حدث .. تلك المشاعر التي كانت تتضارب معها وتزداد جعلتها تنهض بسرعة لتتركنا.

- المعذرة عليَّ أن أطمئن على والدي.

- حسنًا ..

قالتها زوجة خالي مودعة (ريتاج) .. وما إن تركتنا وهي في منتصف الطريق .. لم تعلم هل تذهب لأبيها أم لـــ(مالك).. ولكن هذا التردد زال بعد عدة ثوانٍ فمضت نحو غرفة أبيها .. ليخبرها الطبيب بأن أباها أصبح بصحة جيدة، ولكن عليهم أن يبعدوه عن أي توتر أو أي شيء قد يُثير أعصابه من جديد .. ليتركهم هي ووالديها

- كيف حالك الآن يا بطلي؟

- بصحة جيدة ..

- فقط هو كان يختبر مدى مقدار أهميته لدينا.

قالتها والدها وهي تبتسم نحو والدها.

- هكذا إذن يا أبي ..

- متى سأخرج من هنا إذن؟ أنا مللتُ.

- غدًا .. هكذا أخبرني الطبيب .. بشرط أن تنفذ كلام أمي في كل شيء.

- حسنًا .. سأبقى في المشفى أفضل.

وبالرغم من كل شيء فإن والد (ريتاج) لم يتخلّ عن مزاحه مع زوجته .. وهي أيضًا لم تتخلّ عن مناكفته:

- هكذا إذن ..

- حسنًا.. حسنًا .. سأجلب بعض عصير الليمون لكما أفضل..

خرجت (ريتاج) سريعًا .. ولكن أمها شعرت بشيء سيئ يحدث معها ..

- ريتاج.

- أمي .. ماذا يوجد؟

- أنتِ بخير؟

- أجل أمي .. لِمَ تسألين هذا السؤال؟

- لا أدري أشعر وكأنك حزينة .. أيوجد شيء آخر غير مرض والدك؟

- لا لا أمي .. لا يوجد شيء.

قالتها (ريتاج) باستنكار .. محاولة أن ترسم على وجهها الابتسامة لتطمئن والدهما.. لتتركها سريعًا متملكها العزم للذهاب إلى غرفة (مالك) .. حتى طرقت باب الغرفة ووجهها يغمره الجمود بمجرد دخولها ..

- فلتروا .. أنت من لا هتم بي.

- الخير في أختي.

قالها ساخرًا منها .. بينما هي التي لم تكن تسخر أبدًا ذلك الجمود والفتور الذي لم يراهما من قبل فيها .. ليتدخل جده سريعًا بالحديث"

- كيف حال والدك الآن؟

- الأطباء أخبروني أنه يستطيع أن يغادر غدًا.

- حقًا ريتاج .. هل أخبروكِ ذلك؟

- حقًا .. ريم.

- فلتعذروني إذن .. يجب عليَّ الذهاب.

تركتهم (ريم) لتتجه نحو غرفة أبيها محاولة أن تراه بعد رفض والدها المستمر لذلك خشية على صحته ..

- وأنا أيضًا سأذهب.

قالها الجد بعد إدراكه لوجه (ريتاج) الذي قد اعتلاه التوتر .. ليترك مجالًا بينهما للحديث.

- وأخيرًا .. سيتسع لديك المزيد من الوقت من أجلي.

- مالك.

- ما بكِ ريتاج .. الحمد لله والدك أصبح بخير .. ما الذي يجعلك هكذا؟

- والدي ..

قالتها (ريتاج) وهي تسخر منه بضحكة يملؤها الحزن وربما إذا استزادت بتلك الضحكة لبكت .. لتتابع حديثها:

– لديك أي فكرة ما الذي أوصل أبي لهذه الحالة.

– بسبب طلاق أختك ..

– أنت تعلم إذن.

– لديَّ فكرة بسيطة عن الأمر .. ريتاج يوجد نسبة كبيرة من المطلقات .. لم يسببن لآبائهنَّ هذه المشكلات .. لا تلومي ريم على ما حدث مع والدك.

– لا مالك..أختي لم تضر والدي فقط.. بل ضرت زوجها وابنيها.. ومن أجل من ..؟

– مِن أجل من تحب ..؟

–هكذا أنت ترى الأمر.. من أجل من تحب.. مالك .. لقد أصبح لديها عالم آخر الآن .. لم تعد مراهقة .. بالإضافة إلى أنها تسببت لأبي بألم بالغ .. هل تعلم كيف يشعر الوالد عندما يصاب بخيبة الأمل؟ .. خيبة الأمل عندما يرى ابنته شخصًا آخر.

– ريتاج .. كل الآباء هكذا .. وأيضا كل الأبناء لديهم الحقُّ في اختيار طريقهم بعيدًا عمَّا يخططه آباؤهم.

- ولكن ليس مع والدي .. إن كانت ريم قادرة على أن تختار طريقها بعيدًا عمّا يخططه والدي وراضية هي بذلك .. فأنا لا ..

- ماذا تقصدين؟

- أنا آسفة ..

أطلقت تلك الكلمة بصوت مخنوق .. لتتابع

- لا أستطيع .. ولن أستطيع أن أخبره بقصة حبي لك.

- أعلم .. على الأقل ليس الآن .. مؤكد بعد فترة سيوافق.

-لن أخاطر بذلك .. لن أضع أبي في هذا الموقف مرة أخرى ..

كانت تنظر له نظرة عزم على ما تقوله، وكأنها لن تتراجع أبدًا .. لينظر لها في أسفٍ غير مصدق من هي التي تتحدث؟ غير مصدقٍ ما تستمع إليه أذناه .. لتواصل ما قد شقته من طريق في حديثها:

- سامحني مالك .. ولكن .. علينا أن نبتعد ..عليك أن تمضي بحياتك بعيدًا عني ..

- أجُننت .. ما الذي تقولينه؟

- قد تراني كذلك .. ولكن لن أستطيع المواصلة .. فقط لقد جئتُ لأخبرك بذلك ..

- جئتِ لتنهي كل شيء إذن ..

صمت (مالك) حينها وهو ينظر إليها منتظرًا ردًا منها بالإيجاب على ما يقوله .. ولكنها لم تستطع .. ليكمل هو حديثه وكأن كرامته الآن تطغى على كل شيء

- إذن فلن أتوسل إليك بالبقاء معي .. أذا أردتِ الرحيل فلترحلي ..

- مالك .. أرجوك.

قالتها (ريتاج) وهي تبكي .. ظلت هكذا حتى غادرت .. أوصدت باب غرفته بعد خروجها، وظلت واقفة بجانب الباب خارجًا تبكي بصوت غير مسموع .. وعندما همّت بالمُضي كانت تنظر إلى كل المرضى وهي تبكي تتأملهم وكأنها لا تراهم .. كانت تسير بخطواتها نحو باب المشفى وكأنما تمشي سابقًا مع (مالك) في طرقات مبناهما بالجامعة عندما استثارها هطول الأمطار لتخرج بجيتارها وهو ملاحق لها بمظلتها .. حتى وصلت إلى باب المشفى الخارجي .. الناس أجمعهم يدخلون إلى مبنى المشفى ليحتموا به بسبب سقوط الأمطار إلا هي كانت تمضي بقدميها خارجًا لتحتمي بهما .. لترى كم كان المطر شاهدًا على حبهما فيما مضى والآن أصبح شاهدًا على فراقهما ..

(16)

بكت بشدة ولم تستطع أن تتوقف.. ولم تستطع قدماها أن تحتملا أكثر من ذلك .. فخرت قواها وسقطت على الأرض المتسخة بسقوط الأمطار لتتابع بكاءها بصورة هستيرية.. حتى تصاحب صوت غزارة المطر صوت صرخاتها المنبعثة من قلبها أيضًا .. ولربما ودَّت في تلك اللحظة اقتلاع قلبها من بين ثناياها لتعصره أمامها كما تعصر السحاب في تلك اللحظة ..

وبينما منعت والدة ريم من دخول (ريم) لغرفة أبيها .. على الأقل ريثما يتعافى والدها تمامًا .. فوجدت (ريم) في عودتها إلى منزل والدها هو المنفذ الوحيد الباقي لها ..خاصة وقد أمسوا بوقت متأخر بالليل و(إياد) الصغير و(ملك) وقد غلبهما النوم تمامًا على المقاعد المجاورة لجدهما ..

وفور توجهها إلى الباب الرئيسي للمشفى ومعها ابناها لاحظت أختها وهي بالخارج على هذا الوضع .. فتركت طفليها جانبًا مع إحدى الممرضات لتهرول إلى أختها بسرعة شديدة ..

– ريتاج.

قالتها (ريم) بصوت عالٍ فزعة على أختها .. لتنظر (ريتاج) إليها بأسًى ولم تتمالك ذاها بأن تتوقف عن البكاء:

– لقد تركته .. للأبد .. لقد تركته.

احتضنتها (ريم) لترفعها من على الأرض ولتذهبا هي وطفلاها إلى مترل أبيها .. وما إن وصلتا المترل حتى ذهبت أختها لتحضر فراشًا لصغيريها بغرفتها القديمة .. بينما ذهبت (ريتاج) بطريقة غير إرادية وبصمت كامل إلى غرفتها واستلقت على فراشها بملابسها المبللة .. وكأن دموعها انتهت بانتهاء المطر .. فأصبح وجهها جامدًا لا يعتريه أي إحساس.

وبحلول الساعة السادسة صباحًا.. وكعادة (ريم) لتستيقظ مبكرًا موقظة ابنيها .. وعندما توجهت لغرفة (ريتاج) ووجدهما نائمة وحالها منهك تمامًا .. رقَّ حال (ريتاج) لأختها .. فتركتها لتستريح ومضت مقفلة باب غرفتها .. حتى دقَّ جرس مترلهما ..

– أمي هل أفتح الباب؟

– حسنًا يا (إياد) ..

- إنه أبي.

لقد كان ذلك كفيلًا بأن يجعل (ريم) تُسقِط الأطباق التي كانت تحملها فور استماعها لذلك.. لتظل بالمطبخ لبعض الوقت محاولة استجماع قواها .. لتشد من عزيمتها لتخرج لملاقاته .. ولكنها لم تجد أحد .. حتى ابنيها.

كادت نبضات قلبها تتوقف .. بل توقفت بالفعل .. لتزداد صرخاتها وهي تنادي على طفليها .. حتى أفاقت هلعًا (ريتاج)

- ريم .. ماذا يوجد؟ .. هل حدث شيء لأبيكِ؟

- إنهما .. إياد و ملك ..

- ماذا بهما؟

ولكن ظلت (ريم) تبكي بشدة .. كادت أنفاسها تتوقف قبل أن تتابع حديثها:

- ماذا بهما .. ريم؟

- لقد اختطفهما .. أحمد .. لقد أخذهما ورحل.

- فلتهدئي .. أحمد لن يفعل شيئًا كهذا ..

- بل هو فعل ذلك .. ولهذا كان صامتًا طيلة هذا الوقت.

- انتظري .. سأهاتفه ..

وبدون فائدة .. هاتفته (ريتاج) العديد من المرات، ولكن لم يستجب لها .. مما زاد ذلك قلق (ريتاج) حتى استجاب لها بالأخير .. وقام بالرد عليها:

– أحمد .. الحمد لله .. أين أنت؟

– ماذا حدث ريتاج؟

– فقط..إن إياد وملك يجب أن يصلا إلى مدرستهما ولكن أنت..؟

– لقد جئتُ إلى المترل لكي أقلهم إلى المدرسة .. أليس هذا من حقي بما أني والدهما؟

– أنا آسفة أحمد .. إنهما ابناكَ مهما يحدث سيظلان ابنيك .. ولكن كان عليك أن تخبرنا على الأقل لكيلا نقلق

صمت (أحمد) بُرهةً ليتابع حديثه:

– ظننتها ذكية بما يكفي لتعرف هي ذلك .. إنها حتى لم تجرؤ على ملاقاتي لكي أخبرها بذلك .. وظننتك بالجامعة آنذاك ..

– لا بأس.

أنهت (ريتاج) الاتصال لتخبر أختها بمغزى ما حدث.

– كما أخبرتك أختي .. فقط لقد كان يريد أن يقوم بإيصال ابنيه.

– لا .. سأذهب لأتحقق من ذلك .. أنا لست مطمئنة.

وفور توجُّه (ريم) نحو باب المنزل وقفت فجأة .. ليشتد انتباها .. آخذةً شهيقًا أتبعه زفير مصاحب لعينيها اللتين اتسعتا معهما:

– كم أنا غبية! غبية! أنا غبية!

– ماذا يوجد يا ريم؟

لتلتمس (ريم) أقرب مقعدًا لتجلس عليه .. لتتابع قول ما يدور في ذهنها لأختها:

– إنه ذهب ليراه .. إنه مؤكد ذهب لكي يراه ..

وأخذت تردد بشدة تلك الكلمات حتى قالتها بالأخير:

– لقد ذهب ليرى .. إياد.

لتبتعد (ريتاج) بعض الخطوات بأسف مؤكدة ظن أختها:

– أكيد.

وبمجرد وصول ثلاثتهم إلى المدرسة .. أصبحت نظرات (أحمد) كالصقر متابعًا .. مترقبًا لعدوه .. لملاقاة من هدمَ بيته ومستقبله .. فاتفقَ مع ابنه أن يعرفه بأستاذه الذي يُدعى (إياد).

- أنت أيضًا يا أبي ..؟

- أنا أيضًا ماذا؟

- تريد أن تتعرف إليه؟ .. والدتي وخالتي ريتاج تعرفتا إليه من قبل.

- حسنًا بني .. عندما يأتي فلتنبهني إليه ..؟

- حسنًا أبي ..

حتى أشار (إياد الصغير) نحوه وهو قادم من الباب الرئيسي للمدرسة .. أظن إن كان (إياد) يعلم أنه سيلاقي بزوج محبوبته لربما ذهبت سعادته التي اعتلت وجهه وهو يدخل من باب المدرسة .. بينما نظرات (إياد) فكانت كالجمر الموقد الذي أراد أن يشعل بهما قلب هذا الشخص بل جسده بأكمله ليفنيه عن العالم لو استطاع ..

وبتقدم خطواته نحوه حتى أوقفه:

- أستاذ إياد .. صحيح؟

- صحيح .. هل يوجد شيء أستطيع أن أخدمك به.

فضحك (أحمد) مما استزاد دهشة (إياد) بل شعر أنه يسخر منه ليتابع (إياد) حديثه:

- حضرتك لديك أبناء هنا؟

ليتوقف (أحمد) بضحكه أثر كلمته .. ليتمعن في عينيه بل في وجهه .. ليعاود (إياد) حديثه.

– أيوجد خَطْبٌ ما؟

حتى سئم (إياد) من صمت (أحمد) ليهم بالرحيل عنه:

– أظن بأن عليَّ الرحيل.

– بهذه البساطة؟

ليلتفت له (إياد) مندهشًا:

– عذرًا.

– أنت تعتذر .. هل هذا بسبب ماذا؟ بسبب صمتي .. أم بسبب منزلي الذي حطمته .. أم ستعتذر لابنيَّ عندما تراهما في كل مرة هنا.. أنت تعتذر من أجل أي من ذلك؟

انقلب الوضع رأسًا على عقب .. فأصبح (إياد) هو الآن الذي غمره الصمت، بل وتملكه الجبن من رأسه حتى أخمصي قدميه .. فلم يستطع أن ينظر في وجه (أحمد)، بل ودَّ لو يستطيع أن يجعل الأرض تنشقُّ وتبتلعه .. فلم يُعدَّ فكره ولم يحسب حسابًا لهذا الموقف .. فربما تملكه الارتعاش والتوتر أمامه .. أما (أحمد) فبالرغم من انهدام كل شيء في حياته بل تحطيم قلبه أصبح واقفًا أمامه كالأسد ونظراته

ثابته كالصقر .. ربما هذا أيضًا كان سببًا في ازدياد خوف (إياد) منه..
حتى تابع (أحمد):

- وهأنا قد رأيتك الآن .. أتمنّى أن ضميرك يجعلك تهنأ بالنوم ليلًا.

قالها (أحمد) بثقة عالية منه كأنه سيتابعه كظله .. ليختم (أحمد) لقاءه به بهذه الكلمات .. تاركًا إيّاه بذلك .. ولكن عيني (إياد الصغير) لم تريا سواهم في المدرسة بأكملها .. فكان متابعًا لحديثهم من بعيد وبالرغم من عدم استماعه لأى شيء أو فهمه لأى شيء ولكن كان كفيلًا بأن يدرك أن أباه يعتليه الغضب ..

هنا بدأت تثير شكوك هذا الطفل .. فظل متابعًا بنظراته طوال يومه الدراسي أستاذه ..

(17)

لم يستطع (مالك) أن يظل أستاذه محبوسًا من أجله .. فهو والذي أصبح جسديًا بخير حال .. حتى خرج (يوسف) بعد أن قام بدفع غرامة مالية بسبب الأضرار التي ألحقها .. ولكن الشرطة تكفلت أيضًا بأن ترسل (يوسف) إلى دار رعاية بالمدمنين بسبب سوء الحالة التي وصل إليها .. ليتم علاجه هناك ..

في أعماقنا نريد أن نُصدِّق أننا أقوياء .. لكن كوننا أقوياء لا يعني بأننا نمتلك من الصلابة شيء ..

ظلّ مفكره مشغولًا به .. بأستاذه .. وإن لم يكن أمامه فتملكته أفكاره ليسرح معها في عالم آخر حتى لم يستطع أن يتواصل مع أساتذته الآخرين أثناء تدريسهم .. فظل صامتًا طوال يومه حتى مع أخته وإلى أن جاءت خالته باصطحابه هو وأخته للمنزل بعد أن

أصرت أختها عليها بذلك خشية من أن تلتقي بـــ (أحمد) هناك مرة أخرى .. بل وخشية من رؤية (إياد) التي كانت تتجنب مكالماته الهاتفية من بعد إصابة والدها ..

بينما كانت (ريتاج) ممسكة بيدي الصغيرين .. حتى بدأت تحدث (إياد) بعد ملاحظتها لتغيُّر حالة وجهه:

– إياد .. ما بكَ يا صغيري؟

– إنه هكذا يا خالتي منذ الصباح.

– أحقًّا .. لِمَ؟ أحدث شيء ما بالمدرسة؟ أخبرني فقط إذا أزعجك شخصٌ .. سأهمُّ بضربه .. أنت تعرفني

قالتها (ريتاج) وكأنها الفتاة الخارقة التي تحمي كل من تهتم لهم منَ أيدي الأشرار .. قالتها وهي تضحك محاولة أن تغير من حاله .. لتتابع (ملك):

– لا يا خالتي .. لم يزعجه أحد بالمدرسة .. فقط منذ أن قام والدنا بإيصالنا وهو على هذا الحال.

هنا لم يصمت فقط (إياد) تسابقت نظراته نحو أخته الصغرى لكي تصمت بينما (ريتاج) يزداد بريق عينيها خوفًا ..

– إياد .. هل أزعجك والدك بشيء؟

لتنظر له وعيناها يملؤهما الرجاء بأن يتحدث هذا الصغير .. لينظر لها وليقوده فكره عندها .. فإنها الوحيدة التي ستستطيع أن تطمئنه.

– إنه كان يبحث عن أستاذ إياد؟ لِمَ يا خالتي؟

– لا أعرف.

– لقد كنتُ ألاحظهما .. لقد طال حديثهما.

– أنت تعلم أن والدك مشغول عنكما بالسفر .. ربما أراد أن يطمئنَّ على مستواكما الدراسيّ.

– كنتُ أظن ذلك، ولكن أبي كان غاضبًا وأستاذي كان متوترًا هو أيضًا.. لا أظن أنه بهذا الشأن.

لتبتسم (ريتاج) له .. لتردَّ قائلة له:

– حسنًا سأعدك بأن أتحدث مع والدك لأعرف ماذا يحدث .. هل هذا جيد؟

– أجل.

– الآن عليك أن تبتسم .. لكيلا تهلع والدتك ..

– حسنًا.

كما يقولون منتظرًا على أحرٍّ من الجمر .. فكانت هي (ريم) .. منتظرة عودة ابنها .. كانت ستهم أن تستنبط من ابنها الحديث عن

كل شيء منذ أن رحل هو وأخته صباحًا حتى أوقفتها (ريتاج) سريعًا لتحدثها بصوتٍ خافت:

– لا تفعلي.

– ماذا؟

– فلتتركيهما الآن .. أنا سأخبرك بكل شيء.

لم يستطع (يوسف) البقاء بالمشفى أكثر من ثلاثة أيام .. ولم يستطع أن يتخلى عن عادته هذه .. وسرعان ما هرب منها .. عائدًا إلى منزله ليرتاح لبعض الوقت فيه قبل مزاولة بحثه مرة أخرى عن مصدر ليجلب منه المزيد .. المزيد من هذه السموم .. ولكن ليس كل ما نعد ترتيبه في أفكارنا يصيب في الواقع .. ما إن خطا يوسف بخطواته داخل المبنى الذي يقطن بأحد طوابقه .. حتى لاحظ نظرات جيرانه نحوه .. أحدهم ينظر إليه مُحرِّكًا رأسه في أسفٍ ماضيًا في طريقه .. وإحداهن تمشي برفقة ابنتها فبرؤيتها له تزيد من ضم ابنتها جانبها خوفًا منه ماضيين هما الأخريان بطريقهما .. ليصعد إلى طابقه فيجد باب منزله مفتوحًا .. فيعتليه الذعر ليسرع بخطواته نحوه .. ليدخل منزله بدهشة عندما يجد صاحب المبنى وبرفقته البواب وبعض الغرباء.

– ما الذي يحدث؟

- فقط أجعل ساكني الجدد يعاينون هذا المترل.

- ولكن أنا أعيش هنا .. أستجعلهم يتشاركون معي في هذا المترل؟

قالها (يوسف) بسخرية من قول صاحب المترل .. ليزداد صاحب المترل سخرية على سخريته:

- أظن أن ما تتعاطه قد أذهب بكل ما تبقى لك من عقل.

- أستاذ .. فلتحافظ على كلامك ..

- حسنًا .. فلتقل لي متى آخر مرة قمت بتسديد إيجار هذا المترل؟

ليصمت (يوسف) لبعض الوقت ليستغل صاحب المترل هذا بمتابعة حديثه:

- أنا سأقول لك.. منذ ستة أشهر .. ستة أشهر .. منتظرًا إيجارك ومصدقًا لوعودك بتسديدها .. كنت سأصبر معك أكثر يا بني ولكن أن يكون بين ساكني مترلي شخص مجرم .. فهذا كفيل بأن يجعل من باقي السكان يشعرون بالخوف وعدم الأمان طوال تعايشك معهم ..

- إذن .. أنت تطردني .. أنت تطردني من مترلي.

- وأخيرًا .. أظنك قد فهمت على الآن.

حزم (يوسف) أشياءه متجنبًا هؤلاء .. تاركًا بعضها لدى بواب العمارة كمنحة له .. بينما باع ما قد يفيده لكي يجلب له شيئًا من الأموال قد يفيده في شراء ما يحتاجه من المخدرات .. حتى سيارته القديمة بعد أن قام ببيعها لكي يسدد كفالته وإيجاره المتأخر لصاحب المنزل ومن قد استدان منهم في تلك الفترة الماضية .. ولم يتبقَّ من مبلغها سوى القليل .. ليتصاعد همه من أعماق قلبه إلى أقاصي أنفه محاولًا أن يتذكر أيَّ مخرج له.

كنتُ أشفق من وقت لآخر على حال الجميع عندما أعلم بأمرهم..ولكن أكثر من كنت مشفقة عليها هي (ريتاج) فهي وحدها من كانت تصنع العقدة وتربطها بشدة حول عنقها متعللة بجميع الأعذار .. الجميع وقع بالمشكلات بدون إرادة منهم بذلك بينما هي فلا .. كم كنت أشفق عليها .. وربما أيضًا أنا كنت محل شفقة ليدها في غالبية الوقت ..

فمن يرى حالتها سيرثى لها حقًّا.. فمنذ أن تركت (مالك) بالمشفى وذهابها هي وأسرتها إلى منزلهما بعد شفاء والدها .. تجنبت كل شيء قد يعيدها إلى (مالك) أو أن تفكر فيه مجددًا بل لتمحيه من حياتها مطلقًا .. وكأنها لم تلتقِ به في يوم ما ..

عند مغادرتها هي وأسرتها من المشفى الذي قد سبق خروجي أيضًا بعدة أيام لم تلتفت لـــ (مالك) وهي متأكدة بأنه سيراقبها من

نافذته .. لم تنظر إلى الوراء .. ولم ترد ذلك .. تمالكت نفسها بشدة وكأنها تتحكم بها.. وما إن استقلت الأسرة السيارة .. حتى نظرت في مرآة السيارة متأملة المبنى الخلفي لها..متأملة النوافذ لتجد ضالتها.. لتجد ضالة قلبها .. لتجد (مالك) فتنظر للمرآة وهي تحاول أن تجمد كل دموعها قبل أن يلاحظها أحد .. لتسرع السيارة بالرحيل ومعها تزداد المسافة بينهما.. ليتلاشى وجهه والمشفى بأكمله فور تركهم للمشفى بأسره ومرورهم من الباب الرئيسي نحو الشارع.

وبذهابهما إلى المترل واطمئنانها على حالة والدها .. ذهبت إلى غرفتها وأغلقت الباب لتبكي بشدة بصوت مكتوم .. بدأت تنهار .. لترى صوره على هاتفها فتحاول أن تلمس وجهه .. كانت تجد فيهما عزاءً لها ..

مر يومان عليها وهي في هذا الحال .. ساكنة.. متأملة.. صامتة أغلب الأوقات.. كانت تنصح ابن أختها بالابتسام وهي لم تستطع أن تستفيد من نصيحتها .. وربما كانت (ريم) هكذا هي الأخرى .. مثلهما.. أما والدهما وأبوهما فبالرغم مما حدث مع (ريم) بأمر طلاقها إلا أنهما عادا كما عهدهما مع الأيام .. لتقوم والدة (ريتاج) بإعداد قالب من الكعك على هيئة قلب لزوجها بمناسبة عودته للمترل سالمًا.. وفور ذلك قدم والدهما ألماسًا آخر يضاف إلى سلسلة زوجته الذي قد أهداها لها منذ عيد زواجهما العاشر، فهي سلسلة لطيفة من

الذهب وبها ألماسة صغيرة .. وفي عيد زواجهما الحادي عشر أضاف ألماسة أخرى واستمرَّ في القيام بذلك طيلة العشرين عامًا بكل مناسبة تسعدهما .. وفي السنوات التي كان يضيق بهما الحال ماديًا .. كان ببساطة يشتري ألماسات أقل ثمنًا وعندما تتحسن الأحوال كان يستبدل الألماسات الرخيصة بأخرى أغلى ثمنًا .. وهكذا إذن أهدها بمناسبة عودته سالمًا للمنزل قطعة ألماسٍ أخرى .. عندها فقط عادت ابتسامة فاقديها للحظات وربما لطيلة هذا اليوم ..

وسأظل ما حييت سأغبط (ريتاج) و (ريم) بوجود والدين متحابين هكذا في حياتهما .. يساندانهم ويظلان معهما مهما تفعلا .. وأينما ذهبا .. كنت وما زلت أغبط على هذه العائلة السعيدة التي لم يكن مقدرًا لي الحصول عليها.

حتى حان موعد خروجي الذي صادف يوم خروج (مالك) .. لم يترك جد مالك فرصة وداعه بزوجة خالي تذهب هكذا .. حتى ألقى التحية كل منهما للآخر .. وجهاهما ظلا يغمرهما التفاؤل والفرح .. وكنت أشعر حينها بنبضات قلبها وأيضًا هو .. فكم هُما تمنيا ألا يفارقا بعضهما البعض أكثر من ذلك.

– أستتركون أيضًا المشفى؟

– أجل .. فلقد عادت ابنتي بصحة جيدة الآن ..

وما إن أنهت زوجة خالتي تلك الكلمات وهي تبادل الابتسامة لـــ (عادل) .. كدتُ أقول لها بل أنتما اللذان تنعمان بصحة جيدة بينما أنا و(مالك) محطمان تمامًا.

ولكنها ما لبثت حتى وجهت نظراتها نحو (مالك) وقالت:

– وكيف حالك الآن يا (مالك)؟

– الحمد لله ..

– لقد ازددتَ علوًا بنظري عندما تخليت عن متابعة إدانة (يوسف).

عندها ازدادت نبضات قلبي بالتسارعُ .. عندما تطرقت بالحديث عنه .. ليتابع (مالك) حديثه:

– إنه أستاذي أولًا وأخيرًا.

إنه أستاذه أولًا وأخيرًا .. كانت كفيلة تلك الكلمات بأن تجعلني أُحدِّق في عيني (مالك) .. لقد تخلى عن أن يؤذي أستاذه بينما أنا تخليتُ عن (يوسف) حتى وإن ازداد أسًى .. لقد احترم مشاعره بينما أنا تجاهلتها تمامًا ..

ظلت تلك الابتسامة موجودة على معالم وجه (عادل) و(ليلى) حتى همَّ كلٌّ طرفٍ بالمُضي .. فاصطحبتني زوجة خالي وأحمد خارجًا.. الذي بدا عليه ترحيبه بمساعدة أستاذته.

لم أعلم أنه قد ظل منتظرًا عند باب المشفى الخارجي فور خروجي..أي عشيقة هي من لم تلاحظ حبيبها وهو ينتظرها؟ .. كنت فقط أنظر إلى الأسفل لأتعمَّق في رؤيتي للأرض كم هي قريبة منا .. وفي أي لحظة سنتوارى فيها ..

حتى أوقف (أحمد) سيارة أجرة .. وذهب معنا بعد إلحاح وإصرار من زوجة خالي ليعلم مكان مترلنا وأن تحسن ضيافته في مترلها أيضًا ..

لم أعلم ألهذا تردَّد (يوسف) في أن يحدثني؟ عندما رأى (أحمد) بجواري .. لربما ظن شيئًا ما؟ أم أنها نار الخذلان والضعف اللذين غلبا روحه منذ أن استولت عليه المخدرات بصورة متهالكة.

ما بين الشوارع المزدحمة ليلًا ظل (يوسف) يسير باتجاه الرياح كما هي تحمله معها .. إلى أن قادته قدماه إلى أحد المقاهي بأفقر الأحياء شعبية وأكثرها زريًا .. لعله يجد مراده الخائب .. وكأنه وجد مفتاح كتر لا حصر له .. فوجد (يوسف) المسجون الذي كان مرافقه وقد سبقه بالخروج ببضع ساعات من قسم الشرطة ..

- أتتذكرني؟

- بالطبع .. أين أنت يا رجل؟ .. لقد ذهبت إليك كما وصفت لي عنوان مترلك لكي أسترد قيمة ما أعطيتك إياه .. هل أحضرت أموالك إذن؟

- أجل ..

- هذا جيد .. نادرًا ما ألتقي بأشخاص جيدين مثلك.

وبعد أن أعطى (يوسف) هذا الشخص الأموال، لم يبرح مكانه .. ليتابع المسجون حديثه:

- لِمَ أنتَ ما زلتَ هنا؟

- أريدُ المزيد.

- المزيد؟

- أجل ..

قالها (يوسف) بإصرار بعدما رأى اندهاش ذلك الرجل .. وفور رؤيته لإصرار (يوسف) ابتسم ذلك المسجون بطاقة القدر الذي فُتحت له .. ليتابع حديثه:

- حسنًا .. سأعطيك المزيد .. ولكن فلتعلم لا يوجد لديَّ سوى نوع شديد وقوي .. سيكون مكلفًا.

- لا أهتم.

- حسنًا إذن.

- وأريد منك خدمة أخرى .. لم يعد لديَّ مكان أذهب إليه.

- إذن فالتكلفة ستتضاعف.

حتى وفّق له مكانًا في وسط الأماكن العشوائية وأكثرها زريًا بل لم تكن أماكن بالمعنى المفهوم بل كانت أقرب لمسمى العُشش ..

وعده المسجون أنه سيجلب له المزيد كلما أراد .. فأصبح يمر عليه غده أشد بؤسًا من أمسه في كل شيء .. بدون رعاية وبدون أن يعلم إلى من يلتجئ إليه ..

كما أنه تردد في أن يعود إليّ أكثر من مرة بعد خروجه من السجن .. ولكنه لم يرِد أن أراه بهذه الصورة التي أمسى عليها.

في بادية الأمر لم أشعر تجاه (أحمد) سوى شعور واحد .. وهو النفور.. طبعه وحزمه مختلفان تمامًا عني وحتى عن (يوسف).. وما زاد على طبعه حدة وكآبة .. كان أمر طلاقه من (ريم) وتفكُّك أسرته.. كم حاول والد (ريم) أن يصلح بينهما، ولكن دون جدوى .. حتى توصل المطلقان إلى بقاء الطفلين مع والدهما في منزل أبيها ..

وما إن عاد (أحمد) إلى منزله حتى شعر بوحدته كما كان بالجيش.. لم يجد أمامه سوى خيارين .. أن يعود إلى عمله بالجيش أو أن يساند أستاذته .. فوجد (أحمد) عزاءه في أن يساعدها أفضل .. وأن يفي بما وعده لها بأن يساعدها في إعادتي إلى الطريق الصحيح ..

(18)

استغل (أحمد) مدة إجازته ليساعدنا بجانب زيارته لابنيه وتتريهه لهما في كل نهاية أسبوع .. كنتُ أشفق في بادية الأمر على مطلقته بتحملها له عشر سنوات .. بل عذرتها عندما تقدَّمت بطلب الطلاق منه .. ولكن كم تخدعنا البدايات وكم تخدعنا الظواهر والقشور!

حزمه وجِديته ووجهه الذي لم أرَه يبتسم قط لأيِّ شيء .. ما كانت سوى قشور تعكس قلبًا نقيًّا ورجلًا يُقدِّر كلمته .. رجلًا يلتزم بوعوده .. بل يظل بجانب أحبته ليدعمهم ويحميهم .. لم أكن أفهمه حقًّا، فقد كنت مثل (ريم) بل من كانت تفهم نقاء قلبه هي زوجة خالي التي رأت فيه سندها حقًّا.

فظلت غالبية أحاديث (ليلى) عن شخصين لا ثالث لهما (عادل) و(أحمد) .. عندما تتذكر وتحن إلى أوقاتها الرومانسية السابقة فتتحدث

عن (عادل) وكأنها مراهقة في السابعة عشرة .. وعندما تعود إلى واقعها وواقع وحدتها بعدم إنجابها لأي أبناء تتذكر (أحمد) فتسرد لي عنه الكثير حتى بت أنفر منه أكثر بسبب ازدياد إعجابها به أكثر مما كان عليه حقًّا كما كنتُ أرى.

– أكان ضروريًّا أن تدعي هذا الشخص في منزلك؟

– إنه ليس شخصًا .. إن لديه اسمًا .. اسمه أحمد

– أعلم .. ولكن أنا لا أرتاح إليه.

– طبعًا .. ولهذا أنا أحتاجه .. هو الوحيد القادر على مساعدتك حقًّا.

– مَن .. هو .. هذا الشخص المعقد .. لا بالطبع .. سيدمرني معه.

ضحكت (ليلى) وهي تسخر مني لتتابع:

– سيدمرك .. أنتِ مدمرة بالكامل عزيزتي.

– خالتي .. أنا لست أريد منه أي مساعدة.

– أنتِ لست بوضع يخول لك الاختيار ..

– خالتي.

- لينا .. ليس لديَّ شيء آخر أفعله .. فلتناضلي لتحيي حياة كريمة .. إن لم تريدي ذلك من أجلك .. على الأقل من أجل والدتك.

- حسنًا.

الهواء يتحرك ببطء .. والطريق ينتهي ببطء .. إنها هي الحياة .. في كل لحظة ستبدو جديدة .. وتبدأ معها قصة جديدة .. باتجاه جديد وبانتهاء طريق .. حتى هو انتهى طريقه عندما وجدها لتصبح غايته .. فحبها جعله يدرك سبب حياته .. لم يستسلم بسهولة بفراقها ليصبح كخيالها .. يحاول أن يُخفيها بين ذراعيه عندما تحاول أن تؤلمها الحياة..

ظل (مالك) متيقنًا أن (ريتاج) ستعود إليه .. وفقط هي ستكون مجرد بضعة أيام وستحنُّ إليه .. تلك الثقة بمقدار عشقه بل ومقدار عشقها أيضًا له، كان ذلك ما يحاول أن يقنع به ذاته لكيلا يفقد صوابه ويظل متماسكًا .. وإذا سأله جده أخبره بذلك السبب بتهكم وزاد بأنه صعب أن تتركه الفتيات ..

(مالك) الذي شعرت تجاهه أن تفكيره وتصرفاته أكبر عمرًا حتى من جده .. فكان رزينًا وقلبه المتمزق كبير جدًا لمحبوبته ليتسع لآلامها أيضًا ..

لم يكن مصدقًا أنها لن تطمئن عليه ولو حتى بمكالمة هاتفية..لم يصدق أنها عندما سترحل عنه سترحل بدون رجعةٍ.

لم يملّ مهاتفتِها هو .. حتى خضعت لهوى نفسها في ذات مرة .. لتستقبل مكالمته بدون أن تصدر أيَّ صوت منها .. فقط لتستمع إلى نبرات صوته .. حتى تملكها البكاء وعندها سمعها:

– ريتاج .. أتسمعينني .. أنا أسمع صوت بكائك .. أنا أستمع إلى أنفاسك .. لِمَ أنتِ لا تجاوبينني .. ريتاج.

بينما هي قد وضعت كفَّها على كامل أنفها وفمها لكيلا تُصدر المزيد من أصوات بكائها .. ليتابع هو:

– حسنًا .. فلا تتحدثي، ولكن أنسيتي كل شيء كان بيننا؟ هل نسيتِ ذلك؟ هل نسيتِ مقدار حبي لكِ .. أنسيتني ريتاج؟

عندها أزاحت يدها عن أنفها ورويدًا رويدًا عن فمها .. حتى أخذت شهيقًا عزمت معه بمتابعة إصرارها على تركه حتى ختمته بزفير لتختم به مهاتفته .. فأغلقت الهاتف قبل أن يتابع حديثه أكثر وقبل أن يتملك من إصرارها فيزيله عنها ليعيدها إليه.

أتلفت هي شريحة الهاتف ..لتتجنبه .. وإذا هو بكى، أمسك بجتاره ليغني لها في وحدته بالمترل .. وهي إذا تذكرته أتلفت شيئًا آخر قد يذكرها به .. وبحلول موعد اختبارات الفصل الدراسي الأول ..

انتظرها (مالك) في طرقات المبنى وبجوار خزنتها .. ولكن لم تلتفت إليه وكأنه غريب تمامًا عنها ..

لم يستطع هو أن يصل إليها في شدة ازدحام الطلاب .. وبالأخير وصل إليها، كان فقط يفصلهما بعض الخطوات عندها حان وقت تأدية الامتحان .. فطرده مراقب الامتحانات .. كان حظُّه سيئًا جدًّا في ذلك اليوم .. فكان مُشتت البال في تأدية اختباره .. وفور انتهاء وقت الاختبار نهض من مقعده سريعًا ليذهب لها ويتحدث معها قبل أن ترحل .. ولكن ظنه قد خاب في ملاقاها .. فقد رحلت وكأن لم يكن لها أثر ..حتى صديقتها (نورا) لم يجدها هي الأخرى..

السهر كان حليفهما .. ليس فقط من أجل المذاكرة كما كانا يزعمان ويكذبان على أنفسهما بذلك، بل كان شتات الفكر ما كان يستحوذ عليهما .. كانت (ريتاج) مرددة كلمات قليلة كلما وصل بها تفكيرها نحو تركها لـــ (مالك) ..

- خطئي الأكبر أني أحببتك .. فلقد كنت أعلم من البداية أنك لست لي.

لطالما كانت مرددة لتلك الكلمات.. أثناء مذاكرتها .. وهمها بالخلود للنوم .. وعندما تسرح بخيالها أثناء تناولها لطعامها .. بينما هو لم يفارقه جيتاره بدلًا من كتب استذكار مواده .. وهكذا كان الحال إلى أن انتهت الاختبارات .. وقبل رحيل الجميع إثر فرحتهم بانتهاء

الاختبارات.. إلا هما .. فلقد تقابلت أعينهما وقد فرّق بين جسديهما العديد من الطلاب.. لتنظر له (ريتاج) نظرة خوف من تقدمه نحوها.. ولكنه رمقها بنظرة شفقة ليدير وجهه في الاتجاه المعاكس ماضيًا إلى طريق آخر لا يؤدي إليها ...ربما إذا رأى في عينيها شيئًا من الحب الذي ما زالت تحمله له لهرول إليها ليحتضنها ..

جميعنا نذكر قصص ما قبل النوم منذ أيام طفولتنا .. حيث يطابق الحذاء قدم السندريللا .. ويتحول الضفدع إلى أمير .. وتستيقظ الجميلة النائمة إثر القبلة الموعودة .. يحدث ذلك في يوم من الأيام .. ومن ثم يعيشون في سعادة وهناء بقية أيام حياقم .. قصص خيالية .. وقودها الأحلام .. والمشكلة هي أن القصص الخيالية لا تتحقق على أرض الواقع وحدها القصص الأخرى هي التي تتحقق .. تلك التي تبدأ بليالٍ سيئة عاصفة وتنتهي بما لا يمكن وصفه .. وعندها ستعلم أنها وحدها الكوابيس التي تتحقق على الدوام.

كان يقضي وقته بصرامةٍ معي كأنه يُعاقبني أنا على ما فعلته مطلقته به.. فكان يبدأ يومنا مبكرًا ليُوقظني صوت دقات جرس الباب بمجيئه.. تكون عندها زوجة خالي مستيقظة إثر صلاتها الفجر وقراءة بعض من آيات القرآن الكريم .. وفور انتهائها تقوم بإعداد القهوة بالحليب لها وإعداد كوبٍ آخر من الحليب لي ..

بعد اتفاق ثلاثتنا أن (أحمد) سيأتي لنا مبكرًا في الصباح.. لم أستمع لدقات جرس الباب بالطبع .. فلم تكن من عادتي الاستيقاظ مبكرًا وفي فترة غيبوبتي أثناء نومي لم أتذكر اتفاقي ولا أي شيء سوى الراحة وأخذ قسط كبيرٍ من النوم .. أتت إليّ زوجة خالي مهروله لتوقظني بصوت خافت لكيلا يسمعها (أحمد) .. وبالأخير كأني سمعت صوت (يوسف) ينادي باسمي بقوة .. وعلى أثرها اتسعت عيناي لأُفيق من سُباتي فورًا:

– أحمد هنا منذ عشر دقائق.

– أيأتي أحد مبكرًا هكذا؟

– لينا .. فلتنهضي وتغسلي وجهك سريعًا ..

حتى تناولت المنبه من جانبي لأتابع:

– خالتي .. ولكن أليس مبكرًا جدًّا؟ إنها السادسة.

– كفاكِ تذمرًا .. سأذهب الآن لأجلس معه بينما تتجهزين.

تناول (أحمد) فنجان القهوة مع زوجة خالي وكانا يتحدثان إلى أن أتيت .. وما إن رآني حتى قطع حديثه مع زوجة خالي .. ليُعاتبني:

– إنها السادسة وعشرون دقيقة.

– وإذا ...

فنظر بثبات نحوي ليتابع..

- ليست بداية مُبشِّرة

- أعلم أننا قد اتفقنا سلفًا .. ولكن قد أصابني الأرق الليلة الماضية ولم أستطع أن أنام مبكرًا.

- خطوة أخرى خاطئة.

لقد تملكني الاندهاش من انتقادي ومن أول حديث بيننا .. لقد تملكني الاندهاش من دقة ملاحظته لكل شيء بل دقة مواعيده .. لِمَ تملكني الاندهاش .. إنه ضابط بالجيش .. فكيف لا يكون كذلك؟

وبينما كنتُ أتناول كوب الحليب حتى تابع قوله وهو ينظر إلى ساعة يده.

- هذا يكفي .. علينا المغادرة الآن.

- إلى أين نحن ذاهبان في هذه الساعة .. كل الصالات الرياضية مغلقة بهذا التوقيت.

- سنمارس الرياضة بالشارع.

فقلت ساخرة منه:

- ماذا؟ .. أنت تمزح.

ليقترب بخطواته مني .. اقترب كثيرًا ليصبح رأسه أمام رأسى مما جعلني أخاف منه حقًا .. ليتابع حديثه

- جسدك هذا ميت بالفعل .. هو يحتاج كل ذرة هواء نقي بهذه الساعة .. وأسلوب حياة مختلف .. ومؤكد أيضًا أنا لا أمزح.

فتملّكني الصمت حتى هممت بالنهوض من مقعدي .. لأترك زوجة خالي بعدما ألقى (أحمد) التحية عليها ليهمَّ بالمغادرة .. وفور وصولنا للشارع توقّف عن مضيه بالتحرُّك ليقول لي:

- هذا من حظك وأيضًا من سوء حظك أن أكون أنا من يعيدك إلى حيثما تتمنى زوجة خالك .. فلا تتوقعي مني شيئًا حسنًا .. فستندمين.

- أظن أيضًا أن هذا من حظك وسوء حظك أن تضيع وقتك معي.

- حسنًا .. عشرة كيلومترات.

- هل ستدربني للمارثون أم ماذا؟

- هيًا.

ظللنا نجري تقريبًا ما يُقارب العشرة كيلومترات لأكثر من ساعة متواصلة .. وبعد ذلك ذهبنا معًا لأحد المستشفيات لكي يزور أحد

المرضى .. ظننته على معرفة به .. ولكنه كان يزور المرضى بطريقة عشوائية فيقدم لهم الدعم .. بل جعلني أساعده ..

كنت بالبداية خائفة إذا اصطحبني للمشفى لكي يتم علاجي من الإدمان هناك أو أي شيء من هذا القبيل .. رؤية العقاقير جعلتني أتراجع عما عزمت عليه من ترك المخدرات .. فعندها لم أعد قادرة أن أتمالك أو أسيطر على نفسي .. فبدأ العرقُ يتصبَّب مني .. وشفتاي بدأتا بالارتعاد .. كان عليَّ أن أفهم مغزى ذهابه ومغزى ذهابي معه .. ولكنني وقعت في شَرَكِه المدبر ..

تناولتُ أحد الأدوية بيدي التي كانت موضوعة على إحدى المناضد بجانب المرضى وخبأتُها في جيبي سريعًا .. شعرتُ بالأمان حتى وأن لم أتناولها بعد .. وكم كنت غبية لأظن أنه لم يلاحظ ذلك .. فإن جوهر اصطحابه لي للمشفى للإيقاع بي .. فظلَّ يُراقبني ما إذا كنتُ سأتناولها الآن أم فيما بعد .. وفي هذا الوقت عقلي متردد ومُشتت .. هل أفقد سيطرتي أم أتمالك .. إن فقدتُ سيطرتي الآن فسوف أفقدها ما حييت .. فبدأت تغلبني فكرة أنها ستكون آخر مرة وسأكون شخصًا جديدًا من الغد.. كانت تغلبني تلك الفكرة مرارًا وتكرارًا.. وهو بدأ يُراوغني بالحديث

– هذا مُبشِّر .. بالرغم من وجودك هنا فأنتِ تسيطرين على حالتك.

- هذا صحيح .. أنا أستطيع أن أُسيطر على حالتي.

حتى وإن لم يرَني عندما خبَّأتُ إحدى الأدوية معي .. فتوتري و ارتعادي كانا كفيلين بأن يفضحا أمري .. وهو الذي كأنه بدأ يستمتع بهذه اللعبة.

حتى مر هذا اليوم ما بين تناولنا للغداء والذهاب لإحدى الصالات الرياضية.. فظللت محتفظة بالعقار بسبب ترددي الذي لم يحسمه شيء بعد .. حتى جاء الليل وعدتُ فيه للمنزل .. قام (أحمد) بإيصالي للمنزل وارتسمت على وجهه ابتسامة مفتعلة، ومضى بدون أن ينطق بأي كلمة ..

ألقيتُ السلام على زوجة خالي التي كانت تحدث أبي على الهاتف.. وكم أرادتني أن أتحدث إليه، ولكني تركتها بعد أن أشرت لها بالرفض .. حتى ذهبت لغرفتي .. أوصدت الباب .. ظللت أبحث عن العقار ولم أجده إلا بصعوبة .. ولكن كيف حدث ذلك؟ .. ظللتُ أفكر هل حقًا أنا مشوشة هكذا؟ ولكن تيقّنتُ من أن (أحمد) قد شكَّ بي وقام أثناء تأديتي للتمارين الرياضية وتركي لمعطفي بالخزانة بتفتيشها ليثبت شكه يقينًا .. ظللت أفكر وهي بيدي .. هل سأخون ثقة الكل أم أُجاري ذاتي فيما تريد؟.. ظللتُ أبكى حتى انسابت زجاجة العقار من بين يدي أرضًا بعد انهماكي بالنظر إلى العُقد الذي

قد أعطاني إياه (يوسف) سابقًا .. فنهضتُ بغير إدراك مني ووضعت قدمي على هذا العقار حتى قمتُ بتفتيته وأنا أبكي ..

ظلتْ زوجة خالي تقرع الباب لتدخل وترى لِمَ أبكى .. حتى قمت بفتح الباب لها بعد فترة .. كانت تخشى أن (أحمد) هو من أبكاني .. ولكن ما إن أكملت سؤالها لي حتى رأت زجاج العقار متناثرًا ومعظمه مُفتَّت على الأرض ..

– ما الذي حدث يا عزيزتي؟ ما بكِ؟

– أنا آسفة .. خالتي .. أنا آسفة.

– لا مشكلة .. كل شيء سيكون على ما يُرام.

حكيتُ لها كل شيء منذ أن تركتها .. ضمَّتني إليها وظلت تُشجعني بكلماتها .. وما إن تأكدت هي أني غفوتُ حتى حدثت (أحمد) .. لتخبره أني قمت بإتلافه ..

جاء صباح اليوم التالي مثل السابق، استيقظتُ بأعجوبة أيضًا وظللت أنا و(أحمد) نمارس رياضة الجري من الساعة السادسة بالشوارع إلا أننا زدنا بضعة كيلومترات عن اليوم الماضي.. وكان يريد المواصلة أكثر .. ولكني سقطتُ أرضًا بعد أن قمتُ بالإلحاح عليه قبل الدقائق الأخيرة بالتوقف ..

ظل يُمسِّد بيديه المبللة على وجهي ليُفيقني .. وما إن أفقتُ حتى أعلن لي بالمواصلة .. ولكني ظللت مكاني ولم أتقدم خطوة واحدة .. فتراجع بخطواته تجاهي مرة أخرى:

– لماذا توقفتِ؟

– لم أعد أستطيع المواصلة.

قلتها ببساطة.. ولم أهتم ماذا سيقول أو سيفعل عندها.. حتى تغيَّر وجهه وكأنه يراني شخصًا آخر.. فكم كانت هذه الجملة تثير (أحمد) لأنه يتذكر بذلك حوار طلاقه بزوجته فأتبع قوله:

– وأنا لن أرغمك على فعل شيء .. فلترحلي إذن.

كنتُ حقًّا سأذهب، فأدرتُ ظهري له بينما هو الذي ظل واقفًا ليتابع قوله الذي جعلني لا أتحرك:

– دائمًا أهدر وقتي وحياتي مع أشخاص لا يستحقون .. أخذتِ تحدثينني عن إرادتك بالتغير .. ولكن واضح أنكِ تريدين اللعب فحسب .. أُشفِق على محبوبك .. كيف رأى فيكِ شيئًا مميزًا؟

قالها بغضب نحوي حتى بصق عن يمينه ليوضح لي كم هو يزدري أمثالي وما كان أسرع قولي له وأنا أبكي:

– اصمتْ.

- لا أعتقد بأنك تبادلينه الحب بحق .. وحتى هو أعتقد بأنه سئم منكِ الآن .. وإلا لكان هو موجودًا الآن.

- اصمتْ .. أنت لا تعرف أيَّ شيء عن الحب .. هل تعلم كم أحبَّني؟.. هل أحببت شخصًا وأنت على استعداد أن تفني نفسك من أجله .. حتى آخر نفس فيك .. فقط من أجله .. لا يوجد أحد مثله على الأرض بأكملها أحبَّني بهذا القدر ..

نظر لي وهو متعجب من شدة كلامي معه عن (يوسف) وعن مقدار حبي له وحبه لي .. بعد أن كاد يتلامس لديه بعض الشعور بالندم فور شدة حديثه معي .. حتى تابعت قولي له بعد أن أعماني بعضٌ من الثقة أمامه:

- ولِمَ ستفهم ما أقوله؟.. أعلم الآن لِمَ زوجتك تركتك ..

عندها تحول وجهه نحوي وكان سيهمُّ بأن بضربي على وجهي بيده فور تلك الكلمة التي قلتها .. فتمالك نفسه لحظاتٍ حتى نظر لي نظرة يأس كامل .. وتركني ورحل ..

بعد مرور القليل من الوقت شعرت بالندم على قولي هذا .. ظللتُ أهاتفه ولكنه لم يجب على هاتفه .. حتى عدتُ إلى منزل زوجة خالي .. فتملكني الصمتُ وعذاب الضمير .. وأصابني الأرق مجددًا طيلة الليل .. ولم أُرِد النوم لكيلا تفوتني الساعة السادسة .. فارتديتُ ملابسي الرياضية، ومضيت بنفس الطريق الذي كنا نسلكه في

اليومين الماضين .. لعلي أراه .. وعندما رأيته كم سعدتُ كثيرًا .. ولكن لِمَ أخفيت ذلك الشعور بسرعة حين اقتربت منه؟

- أنا آسفة.

- استيقظت بالوقت المحدد إذن.

- كان عليَّ السهر طيلة الليل للالتزام بالموعد.

نظر لي (أحمد) بابتسامة وتابع قوله:

- هيا بنا إذن .. علينا الجري خمسة عشر كيلومتر اليوم ..

- كما تريد .. سيدي.

كلما قضيت الوقت مع (أحمد) شعرت بأن (يوسف) بجانبي معه .. فأتخيله يسخر منه أحيانًا .. يحفزني أمام تعنيف (أحمد) لي بالكثير من المرات .. كنت أتخيل (يوسف) في كل لحظات يومي .. يراضيني بدلًا من (أحمد) عندما يشتد انفعاله عليَّ ..

في أعماقي .. كنت أُقوِّي إرادتي بتخيل اليوم الذي سيجمعني بـ (يوسف) كزوجين كما تخيلناه معًا .. كنتُ أناضل من أجل ذلك .. ومن أجل مستقبلنا .. وأيضًا ما خططه لي منذ أمد .. مستقبل أبنائنا بالرغم من أن هذه الفكرة لم تكن متاحة لديَّ بهذا العزم من قبل ..

عندما أتذكر (يوسف) قبل الحادث وهو يبكي لي لكيلا أتركه وأمضي .. فيحترق قلبي من أجله .. ويشتد عزمي وإرادتي أكثر

لأتغير .. فلم أكفّ يومًا بالبحث عنه .. لم أعلم هل كنت أنانية عندما تركته ورحلت حينما أدمن المخدرات .. أم أني أنانيةٌ من البداية بأن يكون لي عاشق ناجح تتمناه جميع الفتيات .. كما كان سابقًا ..

لطالما كانت تتزايد الأفكار في عقلي بأن كان عليَّ المناضلة بجانبه سابقًا، وعدم انهياري لطلباته المتوالية للمخدرات .. حتى وإن كان يسبني .. وإن قام بضربي ليحصل على البعض منها .. فلتقع كل الأسباب التي اتكلت عليها لتركه فهو قد أسقط نفسه في كل هذا من أجلي ..

هل كنتُ أتخذ بقائي بجانبه عذرًا لاستمراره في تعاطي المخدرات لكي أتركه؟ .. أم حقًا هو كذلك فعلًا؟ .. هل حقًا أنا سبب بلائه؟ كما أنا سبب بلاء كل من يقترب مني؟ إن كانت كل تلك الأسئلة وهذه الأفكار تهزمني حتى وإن كان بعضها غير صحيح .. فالمؤكد فيها والصحيح.. أني أنا سبب بلائه.. وسأظل.. تلك الأفكار والأسئلة كانت تهزمني وما زالت .. تُحبطني .. وتُقلِّل من عزيمتي كلما بلغت حدها لديَّ ..

ابتسامتُه التي أذكرها إلى الآن هي من كانت عقارًا آخر بالنسبة لي في اشتداد عزمي مرة أخرى .. لأصبح امرأة ذات مستقبل كما كان يراني ..

كما يقولون إن نقاء القلوب هي من تدلنا على الطريق .. فهو من وجدني بأحد الشوارع أثناء بحثي عنه .. حتى رآنا (يوسف) من بعيد أنا و(أحمد) مرة أخرى.. لقد كنا نبحث عنه بأعجوبة .. متمسكين بأي خيط من قِبيل علاقتي في الماضي مع المخدرات والأشخاص الذين يوردونها لنا ..

ربما ظن ثانية أنه زوجي أو أي شيء من هذا القبيل .. كاد يقدم بخطواته نحونا.. ولكنه تراجع عندما تذكّر هلعه في التعاطي .. فاختفى وسط المارة.

كان (أحمد) يتمنَّى من أعماق قلبه أن لو أحبته (ريم) مثلما أحببتُ أنا (يوسف).. ظل (أحمد) يحكي لي عن حياته وتفاصيلها وابنيه وزوجته السابقة.. وأنا أيضًا لم أكتفِ عن الكلام عن والدتي وزوجة خالي (ليلى) وأبي .. أما (يوسف) فكان يدور الحديثُ عنه هو في أغلب الأوقات ..

أصبحنا نتضاحك كثيرًا من كثرة همومنا التي توجد على كواهلنا .. وكم أدركتُ من حديث (أحمد) مدى عشقه لـــ (ريم) كثيرًا، ولكن أصبحت أتعجَّب: لماذا هو تركها إذن بكل ببساطة ومضى؟. كنت أتعجَّب هذا منه، وأخبرته .. ولكنه لم يجاوبني إلا بتصنُّع الابتسام ليهرب من أسئلتي .. فـــ (يوسف) على نقيضه لم ييأس مني ولم يتركني ..

لعلى أنا التي تشبه (أحمد) .. فلقد تخليتُ عن (يوسف) أنا أيضًا لكيلا أكون عقبة في حياته .. فـ(أحمد) تخلّى عن (ريم) لكيلا يقف أمام إرادتها وحبها، والأهم من ذلك كرامته..ولكني لا أريد لـ (أحمد) أن يشعر بالندم مثلي .. فأنا حقًا نادمة.

كان (يوسف) يُمضي أيامه بين الشوارع والأزقة الشعبية.. بين مدمني المخدرات والساكرين ولاعبي القمار .. رآه (علي) و(محمود) مصادفةً .. وكيف تدهور حاله .. فما كانا منهم إلا أن أبلغا (ريتاج) فورًا لتوقف صلتهم بي بالوقت الراهن بأمر من (ليلى) و(أحمد) .. طالما هم ما زالوا يتعاطون المخدرات أيضًا.

فكان ذلك بصيص أمل لديَّ برؤيتي له مرة أخرى .. بإعادة كل ما أخطأت به لأصححه .. بأن أظل بجانبه طالما حييت.. لم تكن زوجة خالي تحبذ أن أعود مرة أخرى لـ (يوسف) بل لم تكن تحبذ فكرة بحثي عنه .. كانت معارضة لذلك على عكس (أحمد) الذي كان مهتمًا بإيجاده.

– أنا لا أفهمك أحمد؟ لقد أبعدناها عن رفقائها بصعوبة .. لماذا إذن تريد أن تقربها من شخص أكثرهم إدمانًا وقلة عزم؟! ستتهاوى مرة أخرى .. وسيذهب كل ما تخطيناه سُدًى.

– يوسف بالرغم ما أمسى عليه فإن شرارة عزمها لتصبح إنسانة أفضل .. إذا فقدته فستفقد كل شيء.

- أنت تعلم .. إذا عادت مرة أخرى لإدمانها فلن يكون هناك أمل مرة أخرى بإصلاحها.

- أنا أعلم .. فقط فلتطمئني ولتثقي بي.

ما لبثت زوجة خالي (ليلى) بعد الحادث تخرج كثيرًا مع (عادل).. تلتقي به صباحًا .. تشاركه بالحديث في أمورها وهو أيضًا يحكي لها عن حال (مالك) بعد ترك (ريتاج) له .. فكان يشكو من تعاسة حفيده .. وهي لم تستطع ألّا تشاركه فرحها بتغير مسار حياتي .. للأفضل.

(ريتاج) التي بدورها أخبرت (أحمد) بالهاتف فورًا ما أخبرها به (علي) عن (يوسف) .. وما إن ذهبتُ مع (أحمد) ووجدنا (يوسف) حتى سعدت بشدة في بداية رؤيتي له، ولكن سرعان ما انقلبت تلك السعادة حُزنًا عليه .. فأصبح يقيم في إحدى الغرف بالمناطق العشوائية السيئة ..

حاله قد أصبح مزريًا عن ما كنت أتخيل .. اندهش هو عند رؤيته لي .. اندهش بسعادة بعد ملاقاتي له بعد طول غياب .. اقتربت منه ببطء على عكس ما كنتُ هيئت نفسي عليه .. فلقد تخيلت أني سأهرول تجاهه لأحتضنه .. ولكن تلك الشفقة والحزن عليه قد شلا قدميَّ نحوه ليتحركا ببطء شديد.

- يوسف.

- لينا أجئتِ أخيرًا؟

ما إن نطق اسمي بنبرته.. وما إن نطق تلك الكلمات حتى بكيت.. لأتابع:

- أجل .. لقد أتيتُ .. الحمد لله .. لقد وجدتُك أخيرًا ..

- كم كنتُ مشتاقًا إليكِ؟

- وأنا أيضًا.

قلتُها والسعادة تغمرني .. فلا شيء سيُفرقني عنه منذ تلك اللحظة .. ولكنه لم يعد قادرًا أن يتابع نطق كلماته .. لقد تمكنت منه المخدرات شرَّ تمكُّن .. حتى اتصل (أحمد) بسيارة الإسعاف ولكن وقتها كان (يوسف) يلفظ أنفاسه الأخيرة .. بلِ كلماته الأخيرة لمحبوبته ..

- حلّقي وطيري .. أنتِ فقط من سيعزز مستقبلك ..

- لا أريد هذا المستقبل من دونك .. لا أريده.

قلتها وقد تملكني البكاء بطريقة هيستيرية .. ليتابع بالرغم من صعوبة قدرته على التنفس:

- لا تقلقي سأكون معكِي .. سترينني في كل مكان ستحققين فيه نجاحًا .. وسأصفق لكي قبل الجميع .. أعدُك.

فتابعتُ وأنا أنهارُ تمامًا:

- لماذا تقول ذلك؟ .. ها .. ستتحسن .. لقد تعافيتُ أنا بشكل تقريبي وأيضًا أنت ستتعافى قريبًا.

- كم أنا فخور بكِ محبوبتي .. فقط تذكريني.

- أرجوك لا تتركني .. لا أريد أي مستقبل من دونك .. يوسف.. أرجوك.

- سيكون مستقبلي أيضًا .. ستحققينه .. ستحققين ما أتمناه لكِ.. عديني .. أن تصبحي ما خططناه معًا .. فلتعديني لينا.

لم أستطع أن أتكلم فلقد تملكتني دموعي .. حتى قلت له بصوت مبحوح:

- أعدك .. أعدك .. أعدك.

وما كدتُ أنتهي من هذه الكلمة وكأن روحه اطمأنَّت بمفارقتي في تلك اللحظة .. حتى لفظ (يوسف) أنفاسه الأخيرة وهو بين يدي .. لا أتذكر أي شيء أثناء تلك الحظة سوى صراخي بشدة أثر موته .. كان (أحمد) بجواري ولكنه تركني أصرخ وأطلق ما يوجد بقلبي ..

(19)

عيناي أصبحتا مبللتين مثل المطر.. بسبب أحزاني.. يبدو أن الليالي المظلمة هي رفيقتي..فلم يتبقَّ لي شيء في هذا الطريق الخاوي..

تخيلت حياتي بأكملها معه .. أقول هذا لنفسي في كل لحظة .. إن لم أحبه حقًّا لماذا ذكرياته تجعلني أبكي؟

كان يخشى أن أعود مرة أخرى للإدمان من إثر حزني وفقداني للشخص الذي أردت التغيُّر للأحسن من أجله ..

أصبحت أرى العالم الآن .. فارغًا .. بدون لون .. لا شيء يميزه.. لم أعد أشعر بالمعاني..بمعنى الحزن ولا التعاسة أو أي شيء عكسهما.. فأصبحت بموت (يوسف) حجرًا في هيكل إنسان .. لم يتحدث معي (أحمد) إلا بعد مرور عدة أيام ..

- كيف حالك؟ أنتِ لم تأكلي شيئًا منذ أربعة أيام .. هذا ليس جيدًا من أجل صحتك .. أستظلين صامتة هكذا؟

لم أشعر حتى بأنه موجود بجانبي .. ولم أشعر بأنه يحدثني حتى .. حتى تابع

- لينا .. حسنًا .. فلتظلِّي هكذا حتى تموتِي أنتِ الأخرى .. ويذهب موته سُدًى.

وكالعادة لم أتمالك ذاتي أمام كلمات (أحمد) الجافة.. حتى بكيت.. ولكن ما لم أتوقعه منه هو أن يحتضنني.. فظللتُ أبكي بشدة بين ذراعيه حتى تحدثت أخيرًا:

- لقد مات .. مضى وتركني .. لم أعد أعلم ماذا أفعل؟ .. لم أعد أعلم أي شيء؟ ..

- لا بأس جميعنا مازلنا معك .. وبجانبك.

- لقد مضى.. مات من كنتُ سأتغير من أجله.. لمن سأتغير إذن؟

- لكِ أنت .. أنسيتِ وعدكِ لـ(يوسف) .. أنسيتِ .. عليكِ المُضي قُدمًا .. عليكِ أن تتعلمي أن تنجحي في حياتك به أو بدونه ..

- ولكن لا أستطيع.

قلتها وأنا أبكي .. حتى تابع بثقة.

– ستستطيعين .. وستنجحين أنا متأكد من ذلك.

– ما الهدف من سعينا نحو السعادة طالما توجُد أشياء تحدث في العالم تمنعنا من ذلك؟

– أجل هناك أشياء مروعة تحدث في العالم والسعادة في مواجهة كل ذلك ليس هو الهدف .. بل بالإحساس بكل ما هو مروع والتيقن بأن مشاعرك لن تقتلك بالمقابل .. هذا هو الهدف.

نظراته الواثقة جعلتني أتعلّق بهما كقشة لكيلا أغرق.. فظللت أثبت دعامة نفسي وإرادتي كل يوم عن اليوم الذي يسبقه .. كنت أناضل أولًا من أجل معشوقي الميت، ومن أجل وعدي له .. و(أحمد) أيضًا قدَّم التماسًا بتأجيل عودته للجيش من أجل بقائه بجانبي وعدم تخليه عني الآن، وأنا في أمسِّ الحاجة لدعم الجميع لي .. .. لقد كان غريبًا عني والآن لم أعد أعلم هل هو رفيق أم طريق.

لقد ازداد مقدار فرح زوجة خالي وسعادتها بتغير مسار حياتي .. للأفضل جسديًّا وصحيًّا .. ولكن نفسيًّا .. كان غريبًا على الجميع أني لم أبكِ على (يوسف) بعد يوم مماته بمقدار ما كان متوقعًا .. لقد ظل وجهي جامدًا لا يبتسم ولا يعبس .. أصبحت إنسانة ذات قلب فارغ .. فلم أعد أشعر بشيء ..

ريتاج التي مدَّت يدها إليَّ في تلك اللحظة لكي تكون صديقة بعد ابتعاد أصدقائي عني .. وأختًا لي عندما كنت في أمسِّ الحاجة إلى

أخت تدعمني .. كان (أحمد) يدرك تمامًا أنه في تلك اللحظات لن يفيدني بقاؤه بجانبي بمفرده طويلًا .. حتى تسارع في طلب العون من (ريتاج) التي لم تتردد ولو لحظة بوقوفها بجانبي ..

انقضت فترة إجازة نصف العام .. لم ترَ خلالها (ريتاج) محبوبها الذي أبعدته عن طريقها .. ولكن لم تنقضِ تلك الأيام كمثيلتها بالنسبة لـــ (مالك) الذي بدأ يتهاوى .. فاقدًا معنى الحياة .. جاءته الكثير من الفرص ليحترف الغناء بعد انتشار أسطوانته مع (ريتاج) ولكنه كان يرفض دائمًا .. فهو مقتنع أنه إذا قام بالغناء عن الحب فلا بد أن يشعر به لكي يصدق الناس إحساسه .. لكي يصدق الناس صوته .. وبما أنه فقدَ الحب .. فلم يؤمن بأنه يستطيع أنه ينشره في مسامع الكثيرين ..

كم أصررتُ على (أحمد) و(ريتاج) بالرجوع إلى محبوبيهما قبل فوات الأوان .. قبل أن يتملكهما الندم مثلي .. ولكن كنتُ كما أنني أحدِّث حائطًا .. أو حائطين.

إذا عاد بي الزمن إلى الوراء .. ما كنت تخليت عن (يوسف) قبل الحادث أو فيما سبقه .. ما كنتُ تخليت عنه قط .. ولكن بماذا يفيد البكاء على اللبن المسكوب؟

مسار حياة (مالك) الآن ليس بأسوأ من معشوقي الميت .. فور ابتداء الفصل الدراسي الثاني .. سافرت (ريتاج) بضعة أسابيع مع

خالتها وابن خالتها (علي).. صديقي .. ليتم علاجه هو الآخر في أحد المستشفيات بعيدًا .. ظلت (ريتاج) هناك تتخذ من دعمها لــ(علي) ساترًا بالابتعاد عن (مالك)، ولكنها أيضًا كانت عونًا لي وما زالت .. فبينما هي كانت هناك إذا رأت خطوة أخرى إيجابية في علاج (علي) قد تفيدني فكانت تهاتف (أحمد) لتخبره على بإحدى هذه الطرق أو الإرشادات ..

كانت أيضًا تُحدِّثني كثيرًا على الهاتف لتقوِّي من عزيمتي إلى حين أن تعود .. وإثر انتهاء حديثنا على الهاتف يعلو لديها أيضًا عزيمتها في مواصلة ترك (مالك) .. فاتفقتْ مع صديقتها (نورا) على أنها لن تأتيَ أثناء دراسة الفصل الثاني إلا وقت الاختبارات، وأنها ستتابع دروسها، وما يستجد من أمور مع (نورا) على الهاتف وعلى الإنترنت ..

وإثر معرفة (مالك) بذلك من (نورا) لم يزده ذلك سوى تشاؤم.. فظل كئيب الوجه .. طال ذقنه وشعر رأسه أيضًا .. وازداد انهمكًا بالغناء أكثر على جيتاره حزنًا .. أصبح يذهب إلى الحانات الشعبية يغني بحزن شديد ثم يبكي بحرقة حتى يطرده أحدهم من أحد الحانات أو المطاعم الصغيرة .. إلى أن رآه أحد مصممي الحفلات الذي وقد سبق (مالك) و(ريتاج) أن أعطياه أسطوانة الأغاني الخاصة بهما منذ خمسة أشهر .. اقترح هذا الرجل عليه بأن يغني على مسرحه ..

لم يُبدِ (مالك) موافقته سريعًا .. بينما ظل شريد الذهن .. توسله جده بذلك لعله ينسى أمر (ريتاج) ويتابع حياته .. فوافق (مالك) بالأخير .. بعد أن أدرك بفكره أن يستطيع أن يغني ليس من أجل الحب بل من أجل الفراق .. فاستحوذت تلك الفكرة على عقله .. يملؤه العزم أن يُغني من أجلها ولها، فترك لمشاعره العنان ليكتب في محبوبته أوصافها ..

في أول حفل له تملكه الاندهاش قبل صعوده خشبة المسرح برؤية كل هذه الأعداد التي قد جاءت لترى ذلك الشاب .. لقد برع مصور الدعاية له بأخذ أكثر من صورة له وهو يتملكه الحزن والغضب برحيل محبوبته .. ولهذا توافد الكثير والكثير لحضور هذا الحفل ..

أنا أيضًا ما كنتُ سأدع هذه الحفلة تفوتني .. وما إن وقفت بين الحشود ورأيته حتى حزنت من أجله .. فبدا وجهه جامدًا ليس يعتليه سوى الحزن بعينيه المتورمتين.. فبدا حزينًا جدًّا .. وما إن وقف في وسط المسرح حتى أخفض رأسه وهو مغمض عينيه عاضًّا على شفته.. يحاول أن يستلهم كل مشاعره تجاه (ريتاج) لكي يظهرها أثناء غنائه ..

حتى رفع رأسه موجهًا نظراته أمامه .. وكأنه يرى بدلًا من كل ذلك الجمهور شخصًا واحدًا وهي محبوبته .. يراها وكأنه يودُّ أن

يعذبها مثلما عذّبته .. وكأنه يود أن ينقل لها جرعة من عذابه .. أن تشعر به .. وربما لا .. ربما تلك النظرات التي في عينيه وكأنه يودُّ أن يغير من محبوبته .. لكي تأتي إليه ..

لتعيده الموسيقى التي ابتدأت إلى واقعه.. فيرفع رأسه قليلًا ليتنهد.. حتى أغمض عينيه مرة أخرى مصاحبًا بتحريك رأسه نحو السماء لتكون أول كلماته تمجيدًا لله .. ليرحمه بكرمه .. ليشتد صراخه بقوة وكأنه يريد من الله أن يقتلع قلبه ومعه ذلك الحب من جذوره.. أو أن يعطيه المزيد من الصبر على معاناته في هذا الحب .. كان يقولها بقوة مسترجعًا كل ذكرى لها معه .. كل ابتسامة .. وكل لحظة جميلة قد جمعت بينهما سابقًا .. ليصمت لحظات مترقبًا ردة فعل الجمهور .. حتى ازدادت الصرخات من الجميع ليتابع غناءه .. فيستزيد بغنائه في وصفها بالقلب الجاحد الناكر لحبه لها .. إلى أن بكى .. ليركع على قدميه محاولًا مناجاتها أمام الجميع .. محاولًا أن يثبت لها أنها هي كل شيء بالنسبة له.

ذلك الحزن القابع في أعماق نفسه زاده تصفيقًا ونجاحًا .. بصدق حزنه وصل لقلوب الآخرين .. من قلبه لقلوبهم .. ليشاركه جمهوره بالغناء.. حتى الفتيات أصبحن يلتففن حوله.. وكلما قام بالغناء أمسك مكبر الصوت كأنما يحتضن محبوبته ..

كما يُقال إن المغني الناجح هو من يوصل آلامه إلى مستمعيه .. وهذا ما حدث .. أغانيه أصبحت جميعها حزينة .. وفيما تحتويها من كلمات عن محبوبته التي قد خدعته وتركته ميتًا زادته نجاحًا.. بل نال شهرة بسبب آلام أغانيه ..

فسجلت له العديد من الأسطوانات وبيعت بنجاح .. ولكنه هو ما زال في هذا الفراغ وهذا الحزن القابع بالرغم من كل شيء .. منتظرًا محبوبته وهو يغني لتأتي إليه .. ولم ييأس من الذهاب إلى نفس الأماكن التي كانا يغنيان فيها في السابق.. لم يكن يخفى عليها هي الأخرى ما وصل إليه (مالك) من نجاح بسبب أغانيه وبسببها هي أيضًا .. فكلما استمعت إلى صوته ازداد غضبها وبكاؤها، وازداد يقينها بأنها لن تستطيع اقتلاعه من قلبها ..

إلى أن أتلفت جيتارها الأرجواني وقامت بكسره .. وحتى قامت ببيع دراجتها أيضًا .. تغيبت عن حضور دروسها بالجامعة تمامًا على حين هو ظل منتظرها حتى عند باب قاعة صفها .. بل حضوره أحيانًا معهم .. أهمل دراسته .. ولولا أنه يخشى أن يغضبها أكثر أو يسبب لها مشكلات أكثر مع والدها لذهب إلى منزلها .. ولكن توسم خيرًا وتملكه التفاؤل بأن عاجلًا أم أجلًا سيراها ..

أصبحت (ريتاج) تأتي بصورة متقطعة لمنزل والدها ليومين أو أكثر وتذهب مرة أخرى لخالتها .. كانت أيضًا تزورني من يوم لآخر.. لم

أكن أوافقها على قرارها بالابتعاد عن (مالك) هكذا وهروبها منه .. فإن أرادت أن تفقد حبيبها فليس عليها أن تفقد دراستها خاصة أنها بالعام الأخير .. وأيضًا لم أكن أوافقها على عدم إخبارها لأبيها عنه .. ولكن لم أعلن ذلك لها صراحة .. فواضح عليها آلام الفراق بدون أن تتحدث، ولكن عوضًا عن ذلك كنتُ أخبرها عن إذا ما كان (يوسف) ما زال حيًّا ماذا كنت سأفعل .. فأشاركها مخيلتي المستقبلية الواهية عن وجوده معي فيها .. كيف كانت ستبدو ..

لم تخلُ الأيام التي تأتي فيها (ريتاج) إلى منزل أبيها سوى ازدياد يقين والدها بأن ابنتها الصغرى يحدث معها أمر غريب .. فلم تعد (ريتاج) التي عهدها الأسرة من قبل .. (ريتاج) التي كانت تمرح هنا وهناك .. كلماتها التي لم تخلُ من السخرية ..

لم تصارح الأم زوجها بشعورها .. لعلها تخيفه عبثًا وهو لم تعد صحته تتحمل أمرًا آخر .. فبادرت الحديث مع إبنتها (ريم) لعلها تعرف شيئًا ما .. ولكن (ريم) طمأنتها بكلماتها وهي ترتسم على وجهها ابتسامة لعل أمها تطمئنُّ ..

– ريم .. أختك ما بها؟ وجهها مختلف كثيرًا.

– إنها بخير يا أمي .. لِمَ تقولين ذلك؟

– لستُ أدري .. ولكن أشعر كأنها تعاني مشكلة ما .. منذ مرض أبيها وهي هكذا .. حزينة ..

كانت (ريم) تودُّ أن تخبر والدها بما يحدث مع أختها .. ولكنها ترددت في ذلك .. فلن يفهمها أحدٌ مثلما لم يفهم أحد (ريم) من قبل

.. لتتابع ريم:

– لا تقلقِ أمي .. إنها مسألة بضعة أيام وستعود كالماضي .. أنتِ تعلمين كم هي متعلقة بأبي .. لا تقلقِي .. كل شيء سيكون بخير.

وبدور (ريم) التي لم تستطع الصمت، فهي تعلم حال أختها .. فأصبح ضميرها يُعذِّبها وهي تخشى على أختها من مستقبلها إن ظلت بهذا العناد .. فحدَّثت (ريتاج) بصراحة في الشرفة المخصصة لحجرتها

– ريتاج ..

– أجل أختي.

– أجل أختي .. إنكِ لم تنتبهي لي سوى مناداتي لكِ في المرة الثالثة.

– أنا آسفة .. فلقد كنتُ شاردة.

– لا مشكلة.

ظلت (ريم) واقفة بجانب أختها صامتة .. حتى أدركت (ريتاج) توتر أختها.

–حسنًا .. أظن أنها مشكلة .. ومشكلة كبيرة جدًّا لتجعلك متوترة هكذا.

- نعم .. هذا صحيح ..

- خير .. أنت بدأتِ تقلقينني.

- إنه أنتِ أختي.

- أنا.

قالتها (ريتاج) بضحك وسخرية من أختها .. لتتابع ريتاج.

- لِمَ؟

-أنتِ لم تعودي ريتاج التي أعرفها .. لقد اختفت الابتسامة من وجهك تمامًا.. بل أصبحت صامتة كثيرًا وتجلسين بمفردك غالبية الوقت.

- أنا كما أنا .. لم يتغير بي شيء .. فقط أنتِ يخيل لك ذلك.

- يخيل لي .. كلما استمعتِ لصوت مالك يتحول يومك إلى جحيم .. أختي لِمَ كل ذلك؟ .. لما أنتِ ترفضين أن يأتي ليتقدم بطلب يدك للزواج؟

- الأمور لا تسير على هذا النحو.

- والدتك قلقة عليكِ كثيرًا .. إنها تظن أنك هكذا بسبب مرض والدنا.

- والدتنا يجب عليها أن تقلق عليكِ أنتِ وليس أنا.

- ريتاج.

قالتها (ريم) بغضب لأختها .. مما جعل (ريتاج) تنظر بحزن جانبًا لتتلافى نظرات أختها .. ولكن لم تتخلَّ (ريم) عن النظر نحو أختها بغضبٍ والكثير من خيبة الظن بها .. لتتابع ريم:

- إذن فإن مالك ليس مشكلتك كما كنتُ أظن .. إنها أنا.

لتنظر لها (ريتاج) وهي صامتة وقد بلغها الحزن وتملك من نفسها شَرَّ تمكُّنٍ .. حتى تحدثت بالأخير.

- أنا لستُ مثلك أختي .. فلن أكرر خطأك مرة أخرى.

- ستكررينه عندما تتركين.. مالك .. خلفك .. وعندما تتزوجين بآخر ستندمين .. مثلي.

لتكرر (ريتاج) كلماتها بإصرار.

- أنا لستُ مثلك أختي .. فلن أكرر خطأك مرة أخرى .. لن أضع أبي في هذا الموقف مرة أخرى .. فعائلتي هي رقم واحد بالنسبة لي.

- أنت تقصدين أن .. أنتِ ترمين إلى أني جعلت إياد رقم واحد في حياتي.

- أجل أختي .. لقد وليتِ معشوقك رقم واحد على كل شيء .. لقد حطمتِ كل شيء قد بنيتيه طوال هذه العشر سنوات .. لقد حطمته في لحظة .. ومن أجل من؟

- ريتاج.

- لا أستطيع أن أصمت أكثر من ذلك .. كيف تطلبين مني أن أولي مالك مرتبة أعلى من أبي؟ .. كيف أستطيع أن أتناسى أبي؟! .. إن ما يجعلني هكذا أختي أني لا أستطيع أن أقتلع مالك من قلبي بينما أنا مدركة تمامًا أنه خطأ ..

وما كان من (ريتاج) سوى أن تعاتب أختها أخيرًا على ما فعلته بـــ(أحمد) وابنيها .. كما أنها تشكك في قوة حب أختها لـــ (إياد) كما تزعم ..الغريب أن (ريتاج) هي الوحيدة التي كانت ترى أن أختها لم تحب (إياد) بهذا القدر الذي تدعيه (ريم) .. وفقط هي متعلقة بآمال وأوهام أوقات المراهقة الماضية ..

وكان كلامها صحيحًا .. فبعد طلاق (ريم) من (أحمد) لم تعد تهاتف (إياد) مثل الماضي .. ولم تعد تعلم كيف تسير حياتها ولا مستقبلها ..

الحب.. عندما تحب فستجد كل شيئًا جميلًا .. كل حلم سيبدو سهل المنال.. وأهدافك ستغير اتجاهها..حتى الرياح ستغير مسارها ..

والعيون ستبحث عن الألوان .. في كل دقيقة وكل لحظة .. دائمًا اسم واحد على الشفتين .. هو اسم معشوقك.

وبالرغم من رجوع (عادل) و(ليلى) مرة أخرى بعد فراق طويل أتعبه الزمن .. ما زالا يشعران بأن حبهما لا يجوز .. كأنهما ما زالا يسرقان هذا الحب .. وحتى وإن توفي زوجاهما .. أو كان هذا ما تشعر به (ليلى) .. ولكن (عادل) .. طلب منها رسميًّا الزواج مرة أخرى في أحد المطاعم صباحًا ..

– ليلى .. لقد عشتُ من العمر الكثير لأدرك إنكِ ما زلتِ أميرة قلبي.

– عادل .. إنك تتحدث مثل شاب في العشرين من عمره.

– ليلى .. سأكون غبيًّا بما يكفي إذا تركتُك تذهبين مرة أخرى .. ليلى .. هل تقبلين الزواج بي؟

– عادل .. ما الذي تقوله؟

– ليلى ماذا يوجد إذن .. لم تعد هنا سلوى أو أي أحد لتخلقي الأعذار من أجله.

– لينا .. لا أستطيع أن أترك لينا بعد كل ذلك .. لقد عادت إليَّ الروح مرة أخرى بعودتها بصحة جيدة.

– هل تستطيعين أن تقنعيني أنه بمفردك ستقدرين على مساندها.. ليلى قريبًا أحمد سيعود إلى عمله .. وعندها ستحتاجين إليَّ أكثر من قبل.

– أنت لا تعقل .. ما زالتَ لديك هذه الأساليب في الإقناع.

– إذن.

قالها (عادل) فرحًا وهو رافعًا لحاجبيه .. لتتابع هي:

– أنا موافقة.

احمرَّ وجه (ليلى) خجلًا بذلك .. ووافقت بعد استنكار وسخرية لم تدم سوى عشر دقائق .. لم يعهد قلبها هذه الفرحة من قبل .. عندما قام (عادل) بتزين أصابعها بذلك الخاتم الصغير .. رأهما (ريتاج) مصادفةً في المطعم أثناء تقديم (عادل) عرض الزواج لـــ(ليلى) .. فتعاطفت (ريتاج) مع كلماته وشعرت أن هذا ما قد سيحدث لها بعد ثلاثين عامًا مع (مالك) .. كم تمنت (ريتاج) على الأقل أن ترتبط بـــ (مالك) حتى وإن كان بعد ثلاثين عامًا ..

تقدمت (ريتاج) نحوهما وباركت للزوجين المستقبليين اللذين فرقتهما الظروف وأيضًا الوفاء بالالتزام ..

كانت الأيام تمر بغصة شديدة على (ريتاج) لم تعد تستطع حتى المذاكرة .. كم تمنت أن ينتهي فصل الشتاء! وكم كرهت صوت

قطرات الأمطار! كلما سقطت قطرة على الأرض .. امتزجت هي بها لتنهمر الدموع من عينها خلسة .. لا أعلم من كان يستمد قوته من الآخر .. أنا أم هي؟

فأصبحت تستمدُّ مني قوة استمراري بالحياة على الرغم من فقداني لـــرفيق روحي .. كانت تُعزي نفسها دائمًا وكأنها تحدث نفسها عن مالك ..

- إنه لم يمت .. إنه ما زال حيًّا .. تنبض أنفاسه في هذه الحياة .. فلماذا أنا هكذا؟ .. أنا فقط ابتعدت عنه .. لكنه ما زال حيًّا

بينما أنا كنت أستمدُّ عزمي من قوة تطويعها لنفسها ولقلبها كما يريد عقلها .. إنه عيب لديها وميزة في ذات الوقت.

بينما هي ما زالت تتلافى الأماكن التي قد جمعتها هي و(مالك) معًا.. وعلمت إنها كم كانت مخطئة بحبها له من البداية وهي تعلم أنه لن يكون نصيبها .. ولربما هي مخطئة في ذلك الاعتقاد .. فليس للقلب سلطان باختياره من يحب .. إنه فقط يحدث .. وحينها لا تعلم لِمَ؟ .. ومتى؟ وكيف حدث؟ ولماذا هو هذا الشخص عن دون كل البشر؟

ومع انتهاء قطرات الأمطار أصبحت أتناسى شيئًا فشيئًا المخدرات.. أنهكتني الأفكار فيما سأفعله بمستقبلي .. وكيف سأمضي وحيدة بدونه .. فأصبح عناقي له مرادًا لي .. ليكون أمانًا يحتويني ..

وأصبحت ذكراه ما هي إلا خيالًا كالواقع ليزيد عذاب فراقي له .. فالشوق بعد الموت لا يطاق .. بينما أصبح أمل (ريتاج) بأن تجف السماء قد تحقق وبدأ فصل الربيع .. فبدأت معه ابتسامة (ريتاج) نحو أن كل شيء سيسير بشكل جيد .. وتفاءلت هي بشهرته التي جذبته بعيدًا عن استمرار حضوره لمحاضراته .. لتذهب هي وهي مطمئنة بأنها لن تلتقي به .. ولكنه هو من لاحظها هناك لتتسع عيناه بينما هي لم تدرك وجوده بانشغالها بترتيب أشيائها بحقيبتها إلى أن شعرت به باقترابه.. لتتسع عيناها هي الأخرى في ألم .. لينظر كلٌّ منهما للآخر.. ولكن لم تتوقف قدماهما قط عن المضي كل منهما في طريقه المخالف .. لم أعلم بماذا هو شعر حينها.. ولكن هي من بكت بحرقة.. لتقع الأشياء التي كانت تحملها بيديها أرضًا..

أختها التي ما زالت تنتظر انقضاء الشهرين المتبقيين من عدتها بفارغ الصبر لترى محبوبها ويتزوجان .. لم يفهم الصغيران بعد تأثير هذا الطلاق عليهما.. لم يتأثرا كثيرًا بانفصال والدهما عنهما .. ولم تتأثر هي أيضًا .. أو على الأقل ما كانت تحاول أن تقنع به ذاتها .. فمنذ بداية زواجهما وهي تأقلمت على ابتعاد زوجها وتحمُّلها للمسئولية بمفردها .. وشعورها بنفس الملل أثناء غيابه ..

أرادت (ريم) الحب والعشق .. بشخص يظل بجانبها .. مثلما كان (إياد) منذ عشر سنوات .. ومثلما عاد إلى حياتها قريبًا.. ولم ترَ من

والدها أي ردة فعل سيئة لها منذ أن عاد إلى كامل صحته.. بل تحدث معها وكأن يلوم نفسه فقط .. فهو أيضًا مشارك في صُنع نهاية هذه الأسرة الصغيرة ..

وبالرغم من حديث والدها معها .. فإن (ريم) لم تشعر بكامل السعادة حتى مع طلاقها .. وحتى بتسليم أبيها بالأمر الواقع .. وأيضًا ليس بسبب مستقبل طفليها بابتعادهما عن أبيهما .. ولكن ما زالت تشعر بهذا الفراغ وبحثها عن شيء ما زال ينقصها حقًّا .. لم تعلم ما هو.. فكان تفكيرها دائمًا مشوشًا وقلقًا ليُصيبها الأرق طيلة لياليها.. ليلةً تلي الأخرى ..

فكانت هاتف في كل صباح (إياد) خلسة .. ولكنها ما زالت تشعر أنه ليس لها .. و (إياد) الصغير أصبح يتحاشى أستاذه بمجرد إدراكه إنه سبب انفصال والديه ..

(20)

كانت تلك هي أحلى الأيام بالنسبة للعروسين (ليلى) و(عادل) .. يعيشان ما تبقى من حياتهما بما فاتهما من جنون الحياة معًا .. الذي وعد زوجته بتناولهما الفطور دائمًا وفي كل يوم خارجًا بالمطاعم في وسط أجواء الهدوء وعلى عكس جميع البشر ..

لم تقلها حلاوة لـــ (ريم) التي ظلت تنتظر على أمل انتهاء عدتها لتتزوج بمحبوبها .. وأكثر الأيام أملًا لي أنا لتحقيق مراد حبيبي .. ولكن (ريتاج) هي من كانت تصنع غلافًا يحيط بها .. يفصلها عن كل من وما تحب .. لائمة نفسها فقط ..

حتى أنا بإيماني بلحظات الفراق .. فهي أتية لا محالة .. دائمًا وأبدًا.. فبقدر حزني بموعد ذهاب (أحمد) للجيش ولعمله ولكني سعيدة بوقوف شخص مثله بجانبي لكي أتخطى محنتي ..

ذهب (أحمد) إلى أسرة مطلقته ليودعهم ويودع ابنيه .. طلبت (ريم) منه أن يتحدثا ليتشاورا ويحددا ماذا سيكون مستقبل ابنيهما ..

فبعد أقل من شهرين ستنتهي عدمّا وستتزوج من (أياد) وهو سيكون بالجيش آنذاك .. ولكن بدأ الحديث وختم بفتور بالغ من (أحمد) .. ليعلن لها .. أن فور زواجها سيترك عمله من أجل تربية ابنيه .. فلن يدع رجلًا آخر يقوم بتربيتهم بدلًا منه وهو ما زال على قيد الحياة.

وبالطبع لم ينسَ (أحمد) أن يودع مشاغبته .. أن يودعني أنا وأستاذته .. لم يقل لي في هذه المرة كلامًا قويًا صعبًا .. ولكن فقط انبعثت منه أرق الكلمات إليّ .. حتى أخبرته أني سأصور فيلمًا وثائقيًا في مجال دراستي بمساعدة من (ريتاج)، وبما يشمل مضمون حياتي وحياة العديدين ممن يتعاطون المخدرات .. وإني حتمًا سأذكره .. فكما قلت عنه إنه بطلي ..

– سأفتقدك .. أو بالأحرى سأفتقد كلامك.

حتى ضحك لأتابع حديثي له:

– لا تقلق لن أبكي.

– أنا أعلم .. فأنتِ فتاة قوية.

– أنا كذلك ..

وعندها تبدلت نظرتي ووجهي من ضحك وسخرية إلى حديث بجدية .. لأتابع قولي له.

- اعتنِ بنفسك.

عندها أدار وجهه جانبًا وهو يحاول أن يحتفظ بابتسامته بعيدًا بنظراته الحزينة عني وكأن أمر الاعتناء بنفسه أصبح لا طائل منه ولا فائدة .. لأتابع حديثي:

- سننتظرك في إجازتك القادمة.

عندها تقدم نحوي ببطء ليضع قبلة على جبهتي قائلًا:

- إلى اللقاء .. لينا.

لحظات الانهيار ..هي خط بدايتنا في حياتنا المهنية ..لكن في حياتنا الشخصية تكون تلك اللحظات دليلًا على الضعف.. ولذلك نقوم بكل ما نستطيع لكي نتجنبها .. بينما ما هو أصح أن نلتمس طريقا للنجاة منها ..

وسط تلك الأجواء فقد عاد (أحمد) إلى عمله من رجل متزوج إلى رجل حرٍّ.. كتوم ..كئيب مما حدث له.. وما كان يسعده لحظات هو أنه قام بإعطاء أمل وإضافة قيمة لحياة فتاة كادت تنتهي .. وإضافة السعادة على أستاذته.

بسفر (أحمد) أصبحت (ريم) تشعر بالغضب أكثر .. أقل شيء يصيبها بالتوتر.. وأصبحت متيقنة أن الملل هو رفيقها مدى الحياة بل سيصبح هكذا دائمًا إن لم تفكر بطريقة صائبة .. بتحكيم عقلها وقلبها معًا بدون تقديم أحدهما على الآخر ..

ظل عقلها شاردًا حتى وهي تحادث (إياد) عبر الهاتف .. فكانت بيديها الأخرى صورة لها هي و(أحمد) وابنيها.. فتبتسم برؤية تلك الصورة.. كانت تعلم برغم من قلة الصور التي لديها عن أحمد وابنيها معها.. إلا أنها كانت سعيدة .. فلاحظتها والدتها وهي على هذا الحال حتى ابتسمت هي بدورها:

- ريم.

- أجل أمي .. هل تريدين أن أعدَّ لكِ شيئًا؟

- لا محبوبتي .. كنتُ أريد أن أتحدث معكِ بشيء ..

- كلي آذان مصغية

-عندما تحب الابنة أباها فلا يوجد قوة في الأرض تفرقهما .. حتى أنا ابنتي .. اعذريني إن تحاملت عليكِ إثر مرض والدك .. فلا يوجد لديَّ إلا الله وأنتم ..

- لا يا أمي لا تعتذري مني .. أنا حقًا آسفة أني قمتُ بإلحاق الضرر بالجميع .. وآسفة اضطررتم لتحمل عبء مطلقة أيضًا .. أعلم كم هذا الوضع مؤلم لكِ ولوالدي!

- لا بأس ريم .. تعلمين إن لم يتسع لك العالم فأعيننا تحملك.

- أعلم أمي، ولكن أشعر بشيء خاطئ .. كمن ترتكب جريمة أو تحصل على شيء ليس من حقّها .. كم تراودني الأسئلة والاتهامات من عقلي بأني أنانية .. لم أفكر إلا بي فقط .. حتى ابناي أعتقد أني لم أفكر بمستقبلهما جيدًا ..

- وأحمد؟

- أحمد .. فقط ما أشعر به .. هو الذنب تجاهه .. أحمد لم يقدم سوى الاحترام والتفاهم لي .. لم أرَ منه شيء سيئًا من قبل .. قد يكون ما تسبب بالجفاء في قلبي تجاهه هو عدم وجوده بجانبي .. وعدم شعوري بحبه نحوي .. أما إياد فلا .. أعلم كم هو يحبني كثيرًا .. ولكن الآن لست أعلم هل ما زلتُ أحبه أم ماذا؟ .. شيء يقف كغصة في قلبي .. تمزقني وتؤرقني.

- محبوبتي .. ما لا يرتاح له قلبك لا تثقي به أبدًا، فالقلب أبصر من العين .. والحب واحد وإن اختلفت العصور .. فقط في وقتي لم أكن أعلم شيئًا عن والدك .. زواج تقليدي جدًا .. ولكن عندما رأيت احترامه لي، ومقدار التفاهم الكبير الذي بيننا عزز حبي له

لأكثر من درجات العشق .. فقط فلتعلمي أن كل حبٍّ له وقت ليحيا .. سواء كان حبك لإياد أم إرادتك المواصلة مع أحمد، فهذا يعود لكِ فقط .. إن لم تكوني سعيدة، فلن تكوني قادرة على إسعاد الآخرين ريم .. ومنهم ابناك.

هناك ضغط مستمر لتقبل التغييرات .. قد تكون عملية صعبة .. ولكن بدونه .. ستجد نفسك تسير إلى الوراء .. عوضًا عن الأمام .. فلا بد أن نُطوِّر من أنفسنا باستمرار .. خلال كل دقيقة تقريبًا .. لأن العالم يستطيع أن يتغير على الفور .. ولا يوجد وقت للنظر إلى الخلف .. فأحيانًا التغيرات تُفرض علينا .. وأحيانًا تكون مصادفة .. قد يكون التغير جيدًا .. ونحاول الاستفادة منه بقدر الإمكان .. أعتقد أنه يجب علينا بقدر الإمكان استحضار طرق جديدة لإصلاح أنفسنا.

لذا أنا تغيرت .. وتقبلته .. قد نصنع نسخًا جديدة من أنفسنا .. ولكن يجب علينا أن نكون واثقين بأن هذه النسخة ستكون مُحسَّنة أكثر من سابقتها ..

مَرَّ أكثر من شهر ونصف على هذا المنوال ما بين عملنا الشاق أنا و(ريتاج) على مشروعي وفيلمي الوثائقي عن إدارة النفس .. لم أنسَ كلمات أحمد لي عن القوة الثلاثية التي توجد في أنفسنا .. تلك القوى ما إن ندركها وما إن نعمل على تعزيزها حتى ستجعل العالم بين أيدينا

.. (الالتزام .. الإصرار .. الانضباط) ثلاثة أشياء إن فعلناها سنملك الكثير .. بالتزامي بعهدي وابتعادي عن المخدرات بشكل قاطع .. وإصراري على ذلك، بل إصراري أيضًا على إحياء حياة كريمة والانضباط على متابعة سلوك هذ النهج .. جعل مني شخصية قوية أتحكم بها في الأشياء وألا تتحكم هي بي .. وبتقديم حالتي الشخصية كحالة عملية لذلك وأيضًا صديقي (علي) .. في البداية عارض والدي هذه الفكرة لأنها ستشهر به .. كما رفض فكرة معالجتي سابقًا من الإدمان علانية من قبل في أحد المستشفيات هنا .. فمن الممكن أن تنخفض قيمة أسهم شركاته بسبب ذلك ..

– ما هذا الهراء الذي تقولينه؟

– هراء!

– لقد تركتُك طيلة حياتك تفعلين ما تودين القيام به .. أينما ومتى أردتِ بدون أن ترجعي إليّ .. لكن أن يتمادى لهوك إلى أن تُشهِّري باسم عائلتنا هكذا .. فهذا ما سأمنعك من فعله.

– يا ليتك منعتني سابقًا عن أشياء كثيرة .. ما كنتُ قد أصل إلى ما أنا فيه الآن.

وبالرغم من وجود كل من زوجة خالي وزوجة أبي أثناء حديثنا .. إلا أنهما فضلتا الصمت عن التفوُّه بأي شيء قد يفاقم الحديث بيننا إلى مشكلة .. حتى تابعتُ:

– إنه مستقبلي يا أبي .. إنه ما كنتُ أسعى إليه .. وما كنتُ أتغير للأفضل من أجله .. لأول مرة أفعل شيئًا صائبًا في حياتي .. كنت أظنُّك ستدعمني في ذلك .. ولكن دائمًا وأبدًا سترجح كفة عملك على كفتي في ميزان حياتك.

– لينا.

– أنا آسفة أبي .. ولكن لن أتراجع عن قراري مهما يحدث.

ما زال جزء من شخصيتي العنيدة موجودًا .. وأمام إصراري على عرض الفيلم الوثائقي في أقرب وقت لندوة ستقام بجامعتنا .. خضع أبي بنفس غير راضية لقراري ..

في خلال الفترة التي تشاركنا أنا و(ريتاج) العمل على المشروع علمت مني أن (مالك) سيسافر مع أبيه وأمه إلى أمريكا بسبب انهياره وإهماله لدراسته .. ولم تستطع (ريتاج) إخفاء معالم الاضطراب فور علمها بذلك .. وأصبحت إثر ذلك عصبية بصورة ملحوظة ..

– هل تريدين رأيي؟

– لا.

قالتها وهي تضحك .. فجعلتني أضحك أنا الأخرى لأتابع قولي لها في ثقة:

– فلتذهبي إليه.

- محال.

- هل تعلمين أني أحسدك؟

- ولِمَ؟ كلتانا عانت الكثير بسبب الحب .. وكلتانا فقدت محبوبها .. فنحن متعادلتان.

- لا ريتاج .. أنتِ مخطئة .. قوة ترابطك بوالدك وحرصك على عدم إغضابه يجعلاني أحسدك لأني لا أستطيع أن أفعل ذلك .. قد أكون مثل أختك ريم في هذه النقطة.

- أنتِ فعلًا مثلها بالنسبة إليّ .. فأنا استزدت أختًا بكِ.

- جيد .. وأنا أيضًا.

وبالرغم من محاولتها للبقاء على ابتسامتها.. إلا أن الاضطراب الذي تملك نفسها بسبب معرفتها بأمر سفره لم يزد في (ريم) سوى القلق أكثر على أختها مما جعلها تخبر والدها بما يحدث مع (ريتاج) ريثما شعرا الوالدان أيضًا أن ابنتهما ليست بخير ..

كان على (ريم) الحديث .. بطبعها لا تستطيع أن تكتم شيئًا قد يسبب كتمانه براكين في المستقبل .. لم تندم (ريم) بإخبار والدها .. لعل أختها تصبح ريم جديدة بعنادها .. ولكن لم تتيقن (ريم) من ردة فعل والدها تجاه أختها .. سوى أنه نهض في صمت ومضى خارج المنزل .. وعندها لم يبقَ سوى (ريم) ووالدها.

- لقد كان عليَّ القيام بذلك يا أمي .. لا بأس إن ظللت أنا من تتحدث دائمًا عن المشكلات.. ولكن لا أستطيع أن أرى من ريتاج.. ريم أخرى

- كان عليك أن تخبرينا منذ فترة.

- أعلم .. ولكن كان لديَّ أمل أن تنساه.

الأب الذي كمن يحمل جبلًا ضخمًا على كاهله .. أدرك أن ليس الآباء فقط من يقومون بتربية أبنائهم، وإنما هما أيضًا يتعلمون معهم .. ليهاتف (علي) لكي يراه في أحد النوادي القريبة من منزله.

- كيف حالك يا عمي؟

- بخير يا بني .. اجلس.

شعر (علي) بالريبة من معالم وجه زوج خالته الذي ارتسم على وجهه السعادة .. ولِمَ لا؟ فوالد ريتاج كان قليل الحديث مع (علي) بسبب سلوكه في الماضي .. وها هو يتقرب إليه.

- حسنًا علي .. كيف حال صحتك الآن؟

- بخير عمي .. أنا أسير بخطى جيدة نحو الشفاء مما كنتُ أنا عليه .. البركة في والدتي وريتاج اللتين لم يتركاني ولو لحظة.

- أعلم .. فـ ريتاج دعمتك كثيرًا أثناء محنتك .. ولكن إن كانت هي في محنة هل ستقف بجانبها؟ هل ستدعمها؟

- عمي .. أنا لا أفهمك؟

- أنت مع ابنتي بنفس الكلية .. وتلتقي بها كثيرًا .. بل تعرف عنها الكثير عما أنا لا أعرفه.

- حسنًا، عمي أنا بدأت أرتابُ حقًّا .. ماذا يوجد؟

- مالك.

- مالك!

- مَن هو؟

- إذن يا عمي .. حضرتك أتيت بي إلى هنا لتسألني عنه.

- علي..ريتاج في حالة مزرية.. وأنت كأخيها .. إن كنتِ تعرف شيئًا وتخفيه عني .. فاحرص على أن تعاني أنت أيضًا .. بل أكثر منها
- لقد قطعت لها وعدًا بعدم تحدُّثي عن هذا الأمر.

لم تنخفض نظرات الأب القوية تجاه (علي) .. لينهزم (علي) سريعًا مستسلمًا له.

- حسنًا، عمي .. سأخبرك بكل شيء.

عندها تأكّد الأب من صحة حديث (ريم) .. لتأتي (ريتاج) مقاطعة حديث والدها وابن خالتها بمجيئها وهي تصنع الابتسامة حتى تحولت تلك الابتسامة لجمود سريعًا برؤيتها لجمود وجه (علي).. بدأ يلاحظ

الأب ما بين برهة لأخرى تعبيرات وجه ابنته التي كانت تتوارى عن الأعين في الشهور الماضية .. ليشعر (علي) بعدم ارتياحه بطول جلوسه أمام زوج خالته و(ريتاج) هكذا يتملكهم الصمت .. وما إن دق جرس هاتفه حتى اتخذه عذرًا لينهض بعيدًا عنهما .. فيتيح بذلك فرصة ليتحدث الأب مع ابنته:

– ريتاج .. فيمَ أنتَ مُنشغلة البال؟

– لا شيء أبي .. لا شيء.

– ما اسمه ..

– من؟

– لن أستطيع أن أشهد انهيار أسرة مرة أخرى ..

– لِمَ تقول ذلك أبي؟ ..

قالتها (ريتاج) مستنكرة وهي تبتسم محاولة إخفاء توتُّرها بتناول كوب من المياه الذي أمامها .. ليتابع والدها:

– ليس سهلًا أن أرى طوال العشر سنوات الماضية الحزن في عيني أختك .. في نظراتها .. وفي فتور مرور أيامها .. كنتُ مخطئًا عندما أرغمتها عليه .. حتى وأن ارتأيت كم هو مناسب لها .. فهي لم تستطع أن تتوافق معه .. ولست موقنًا أني سأستطيع أن أتحمل رؤية هذه الآلام في عينيكِ أنتِ أيضًا بالمستقبل ..

– لا تقلق أبي عليَّ .. أنا قوية بما يكفي.

– أعلم .. ولكن أصبحت أقلق الآن .. أنتِ لم تبدأ حياتك بعد وأنظري إلى وجهك كم أنتِ تعيسة! لما لم تخبريني من البداية؟

– عن ماذا؟

– مالك .. هذا اسمه صحيح.

– أبي عن ماذا تتحدث؟

– أختك أخبرتني بكل شيء .. وابن خالتك أيضًا.

عندها تحولت ابتسامتها الساخرة إلى دموع تزيد في عينيها فقط لمعانًا .. لتتابع قولها له.

– أنا آسفة أبي .. إن كنت قد خيبت ظنك بي .. لقد أنهيت صلتي به .. ولا تقلق .. سأوافق على مَنْ يتقدم لي وأنت راضٍ عنه

– إذًا فلتخبريه أني أريد أن ألتقي به ..

– ماذا؟

– أريد ان ألتقي به وبعائلته.

– حقًّا أبي ..

– فقط لأختبره .. وبعدها سنرى.

ولِمَ لا يتوقف قلبها فرحًا؟! ولِمَ لا لم تصدق نفسها؟! ولِمَ لا تظن أنها تحلم .. فحلمها بات حقيقة وعوائقها التي قامت ببنائها لأشهر قد أُزيلت في لحظة .. فتابعت باندهاش قولها لأبيها.

- حقًا أبي .. حقًا .. أنت تريد أن تراه.

- أجل.

حسنًا .. سأخبره .. سأخبره الآن.

لم يكن متوقعًا لـــ (ريتاج) أن أباها يفاتحها في هذا الموضوع .. ويوافق مبدئيًا فقط عندما يرى محبوبها .. فرحت كثيرًا .. بل ووالدها ظل يضحك كثيرًا بإدراكه إنه هو سرُّ ضحكة ابنته ..

ظلت تهاتف (مالك) ولكن هاتفه كان غير متاح ليبشرها بسوء حظها معه .. ما كان منها إلا الذهاب إليه فلم تجده بالمترل أيضًا .. ليقول لها بواب العمارة أنه سافر هو وعائلته .. وعندما سمعت (ريتاج) تلك الكلمات من بواب العمارة حتى أسرعت خطاها لتستقل سيارة أجرة للمطار .. لعلها تلحق به قبل أن يسافر ..

متألم هو برحيله .. لينظر من خلال نافذته إلى الجسر الذي كانا يغنيان عليه .. ينظر إليه بقوة يملأ عينيه منه حتى اختفى من أمام عينيه بسرعة تحرك سيارة عائلته .. بينما هي على نقيضه .. فتملك وجداها كل السعادة الموجودة بالعالم .. لتخرج برأسها قليلًا من النافذة المجاورة لها ليغمر وجهها نسيم الهواء فيزيدها سعادة .. لتغمض عينيها متخيلة لقاءه. منتظرة على أحرِّ من الجمر وصولها إليه..

وما إن توجه سائق السيارة التي تستقلها بالمضي في أحد الشوارع المؤدية للمطار حتى كان مزدحما وبشدة .. كان طبيعيًا ذلك وخاصة

أنهما في وقت الظهيرة يكون طريق المطار مزدحمًا .. ولكنه لم يكن يمثل لها عائقًا مثل العوائق التي كانت تخشاها بأفكارها .. فتركت السيارة التي كانت تستقلها، وظلت تجري بين السيارات المرصوصة إثر الزحام .. وبين المارة أيضًا .. حتى وجدته بإحدى السيارات بعيدًا .. ولكن لم تستطع أن تلحق به وهي تهرول بقدميها هكذا .. غير أن تستنجد بأحد الشباب في أن تأخذ دراجته وتذهب بها من أحد الشوارع الفرعية المقابلة للشارع الرئيسي الذي يسيرون فيه .. حتى تذكرت أحد سباقاتها مع (مالك) بالدراجات .. وكيف سبقته في أحدها .. كانت تلك الفكرة تحفيزًا لها في أن تسارع من خطواتها بالدراجة نحوهما فقط الذي جعل الحظ حليفها هو ازدحام حركة المرور حتى تطرفت من الشارع الفرعي للرئيسي لتصطدم بسيارتهم مفتعلة ذلك لكي يتوقفوا.

– أغبية هذه؟

قالها والد مالك الذي كان هو سائقًا للسيارة .. قالها وهو خائف بعد أن أوقف السيارة بأعجوبة لكي لا يصطدم بها .. فأتبعه الجد قولًا وهو يضحك:

– إنما هي عاشقة.

اتسعت عينا (مالك) اندهاشًا برؤيتها هكذا .. حتى ترجّل من سيارته متوجهًا نحوها .. مادًّا يده إليها مثل أول يوم التقيا فيه في

الجامعة ليساعدها على النهوض .. لتنظر له (ريتاج) والابتسامة تعلو وجهها:

– كنتَ محقًّا .. كان عليَّ فقط أن أخبره .. فلعلَّ ظني يخيب.

– أولم يخبرك أحد سابقًا إنكِ غبية؟

قالها مالك لها والابتسامة تغمر وجهه فرحًا .. حتى تابعت هي وتكاد الدموع تنهمر على خديها فرحًا.

– أنا آسفة .. آسفة على كل لحظات الفراق والألم الذي أحدثتُه لك ..

لتقوم بإزالة بعضها من على خديها مستمدة القوة بالنظر إليه لتتابع قولها:

– ولكن أحدهم كان متأكدًا أني سآتي عاجلًا أم آجلًا .. لأنه لا يوجد غيره كان يقف بجانبي .. أتذْكُر؟

احتضنها (مالك) بقوة وهما يبكيان من شدة فرحهما .. ليقول لها:

– أذكر.

الجميع أصبح مع مَنْ يحب .. حتى أنا .. وقد شعرتُ كأني حقًّا أرى (يوسف) معي يبتسم لي في كل عمل لي .. أو عندما أُصاب بالإرهاق فأتخيله يُحفِّزني بكلماته السابقة لي عندما أتذكرها .. وعندما يتخلى فريق عملي عني بالرحيل مبكرًا .. فأستزيد مخيلة بأنه

هو من يظل معي .. ويبقى .. وطالما كان عُقدي الجميل الذي أهداه لي معي فكنت أشعر به ..

فقط كلمات منه كانت تزدني همَّة .. بنبرته:

– عندما ستكونين بمفردك .. سأكون دائمًا معك .. فلن أبتعد عنك أبدًا.

دائمًا وأبدًا هو معي .. دائمًا حولي .. حتى وإن كان خيالًا .. فوجوده جعلني أدرك سبب حياتي ..

ولم يخلُ بالي من التفكير تجاه (أحمد) .. كم أعلم أنه ما زال يحمل الحب تجاه (ريم) ولكنه لم يناضل من أجل حبه ضد كبريائه وكرامته .. ولم يُرِد أن يقف حاجزًا أمام إرادتها بتركه .. (أحمد) الذي ما زال يشعر بالوحدة ولأول مرة وهو بين فريق عمله بالجيش .. فكان على نقيض (ريم) .. كلما تنقضي الأيام وتمر كلما أصبح هو تعيسًا وحزينًا .. قليل الكلام .. شارد الذهن .. يظل يتخيلها كما رآها أول مرة .. بفستانها الوردي .. مزينة شعرها بوردة بجانب أذنها اليسرى .. لم يبارح ذهنه ابتسامتها قط، وأيضًا دموعها الذي شهدها هو ولأول مرة في إجازته السابقة .. أسوأ إجازته من العمل في حياته.

كنتُ أرى بل مؤمنة أن ما يحدث من شيء سيئ مع شخص قد يكون بذات الحدث يدر النفع على شخص آخر .. كما كان هكذا معي ..

كان هذا اليوم مزهرًا في كل شيء .. فكانت توجد الزهور بكل مكان بمنزل والد ريتاج .. ولِمَ لا يكون كذلك .. إنه يوم خطبة (ريتاج) و(مالك) ولم يعد على عدة (ريم) أن تنتهي سوى بضعة أيام..

دعت (ريتاج) (إياد) لتكتمل فرحة أختها .. كان بهذا اليوم أيضًا هو ازدياد فرحتي وقربي من تحقيق حلم معشوقي المتوفّى .. فبذات اليوم أقيمت ندوة في جامعتنا لأنطلق بها كبداية عن مشروعي .. فيلمي الوثائقي .. فكانت برفقتي زوجة خالي .. وبحضور أبي وزوجته كانت مفاجأة سارة لي أيضًا ..

بالطبع لم أستطع حضور حفلة خطبة (ريتاج) .. كم اعتذرت لها وهي أيضًا كم ودت مرافقتي ووقوفها بجانبي في هذا اليوم .. أصبح هذا اليوم بالنسبة لي ولها هو أسعد أيام حياتنا ..

وقبل أن أبدأ هذه الندوة كان عليَّ مهاتفة (أحمد) .. كنتُ أشعر بالتوتر والخوف والقلق باقتراب لحظات بدء الندوة .. حتى حفّزني هو بكلماته الجميلة التي شعرت بل أدركتُ على أثرها بعد لحظات إنها لا تحمل روحًا .. كلماته كانت على عكس طبيعة صوته .. وعندما استفسرت منه عن السبب .. بالطبع لم يخبرني بل أكّد لي أني أتوهم ... وفور إنهاء مهاتفتي معه .. بدأتُ أفكّر وتشغلني بعض العمليات الحسابية .. التي لم أكن بارعة فيها .. لأستنجد بزوجة خالي:

- حمدًا لله أني وجدتك

- ما الخطب لينا؟

- خالتي .. هل تذكرين متى تحديدًا حدثت معنا الحادثة؟ -

وسرعان ما أدركت أن عدة (ريم) ستنتهي بعد يومين .. ولهذا (أحمد) مضطرب .. قبل أن أخطو خطواتي داخل قاعة الندوة .. تملكني التردد .. فكان عليَّ مهاتفة (ريم) .. كان عليَّ أن أردَّ ولو شيئًا بسيطًا مما فعله أحمد لي ..

لم يكن قد سبق أن التقينا أو تحدثنا من قبل .. مدى عشق (أحمد) لـــ (ريم) .. وحديث (ريتاج) عن اعتقادها بأن حب أختها للآخر ما هو إلا شيء آخر .. كانت تلك أسبابًا لتحفيزي على مكالمتها .. وإخبارها كم (أحمد) يعشقها ..

شعرتُ حينها بأن كلام (ريتاج) صحيح .. فـــ (ريم) ظلت صامتة تسمع كلماتي عن (أحمد) بلهفة وعندما أنهيتُ حديثي معها .. اطمأننتُ لدخول القاعة ..

كل تلك الأعداد من الناس وكمية الأضواء والكاميرات أرهبتني.. فتملكني الشعور بالوحدة.. حتى رأيته هناك .. يقف وسط الحشود.. ينظر إليَّ ويبتسم .. ليستمع إليَّ .. وكما أخبرني بأنه سيظل بجانبي .. وسأجده في كل مكان سأحقق فيه نجاحًا ..

لتختفي الرهبة شيئًا فشيئًا بتخيُّلي لرؤياه .. حتى اقتربتُ من مكبر الصوت .. لأبدأ خطواتي نحو طريق النجاح.

لم تبتعد أعين الكاميرات أيضًا عن (ريتاج) في حفلتها .. فكانت البهجة تعمُّ الجميع وأولهما والدها .. وبمجيء (إياد) إلى المترل ليهنئ والد ريتاج .. سرعان ما قام بالرد عليه والدهما بفتور ومضى .. بعد أن أوصى حفيده بالبحث عن والدته .. ولكن لم يجدها .. فأخبرهما (ريتاج) أن آخر مرة رأت فيها أختها منذ أن حدثتني على الهاتف منذ عدة ساعات .. ليظل (إياد) منتظرًا إياها لحين ظهورها.

كما لم يستطع (أحمد) حضور ندوتي، فلم يستطع أيضًا حضور حفل خطبة (ريتاج).. كان منهمكًا بالعمل.. يظهر عليه التعب ويمتزج به الغضب في تعامله مع الأشياء.. حتى توجَّه إلى أحد الأوعية المملوءة بالماء ليمسح رأسه جراء هذا الحر الشديد بالصحراء.. وما أن أفلت يديه من على شعره .. حتى بدأ يشعر بشيء مختلف .. وكان الماء الذي غمر رأسه قد غمر قلبه لينبض من جديد .. فقاده إحساسه بوجود شخص غريب بالمكان .. شعر بزوجته وكأنها موجودة بالفعل .. حتى أراد أن يكذب قلبه بالالتفات بوجهه ليؤكد لنفسه بأنه لا يوجد أحد.. ولكن صدق قلبُه ... فكان شعورًا حقيقيًّا.. فلقد ذهبت إليه بالفعل ..

ليحدق كل منهما بالآخر .. مندهشًا هو بنظراته.. ومتملكها الشعور بالأسف بنظراتها .. حتى اقترب كل منهما نحو الآخر.

- هل أتيتِ هنا إلى الرجل الخطأ.

قالها لها وهو يسخر منها بحزن متملك كلماته .. لتَقول له بعطف:

- لا.. طوال العشر سنوات الماضية يا أحمد .. لم أفهم معنى عشقي لك مثل اليوم وأني لم أكن لأحد إلا أنت .. عندما شعرت بأني سأفتقدك للأبد .. ولن أراك ثانية .. لم أرد أن أفْقد حبي ثانية .. أو أكرر خطئي مرة أخرى ..

في كل كلمة كانت تقولها وكأن تلك الكلمات هي من ستروى نفسه حبًّا .. لينظر في عينيها ليرى مدى ثبات نظراتها نحوه .. مدركًا كم هي صادقة بمشاعرها الآن نحوه .. ليتابع قوله لها:

- أولم تستطيعي معرفة ذلك منذ القليل من الوقت؟ .. فقط القليل من الوقت.

- أنت تعلم من البداية .. أني أحتاج إلى الكثير من الوقت لأفهم الأشياء .. وأحدهم قد قال لي .. أن كلّ عشق له وقته .. وهذا هو وقتنا ..

كل شيء يتغير بين لحظة وأخرى .. وكل شيء لن يظل على حاله دائمًا.. هكذا تبدّل سوء أيامهما إلى سعادة .. إلى إدراك سعادتهما

والسعي نحوها.. وأنا أيضًا أدركتها وازددتُ سعادة أثناء إلقائي لندوتي لأختمها بكلمات ما زلتُ أذكرها إلى الآن:

(كن كما تريد أن تكون .. فليس هنا حدود للوقت .. يمكنك أن تتغير أو تظل كما أنت ليس هناك قوانين لذلك.. يمكننا القيام بالأفضل في أسوأ الظروف.. بإمكانك مقابلة آخرين ذوي فكر جديد.. بتقبلك لكل حدث يحدث لك وكأنه يهديك شيئًا جديدًا .. عندها ستعلم أنك على قيد الحياة .. أتمنى أن أفعل الأفضل دائمًا .. أن أرى ما لم أراه..أن أشعر بما لم أشعر به من قبل .. أن أكون جديرة بلقب إنسانة.. وفقط ما سيجعلنا نشعر بإنسانيتنا هو الحب .. الحب الذي يحطم المرء، ولكن يبقى الناس معًا ..الذي يخلق المسافات، ولكن يجعلكم قريبين .. الحب الحقيقي والأبدي).

تلك الكلمات وكأنها نابعة من نفس (يوسف) .. وكأنه ينطقها بدلًا عني أمام الناس .. تلك الكلمات التي كان يرددها دائمًا في مسامع أذني لتطرب لها روحي .. وعلى ألحان الحب تدرجت ريتاج فوق السلالم الداخلية بالمنزل الصغيرة وهي ترتدي فستانها الوردي .. تنظر أرضًا غير رافعة رأسها في خجل بسبب سعادتها .. حتى قبلها والدها على رأسها وأوصلها إلى مالك.. حتى قاما الحبيبان بوضع الخاتم في يدي كل منهما .. ليصفق لهم الجميع .. كما صفق لي طيف (يوسف) بانتهاء كلماتي كأول شخص يستقبل عملي ونجاحي

بحفاوة.. ليكون معي في كل مكان أحقق فيه نجاحًا .. ولم تكف عين زوجة خالتي عن دموعها بفرح وهي فخور بي ..

كل شيء تغير حتى هو ما إن تيقن من عينيها أنه هو حبيبها الأبدي .. ليبتسم لها متأملًا نظرات عينيها:

– هل تتزوجيني؟

–أجل.

قالتها (ريم) بلهفة واشتياق له وبسعادة بالغة ممتزجًا بها خجلها .. وما إن أراها الخاتم أمام أعينها حتى ابتسمت بشدة ليضع الخاتم مزينًا يديها، بينما هي فلم تبعد ناظريها عنه وهو متأمل ليديها .. ليرتفع برأسه نحوها ليحتضنها (أحمد) بشدة كما لو كان شيئًا أحبه بقوة وقد ضاع منه وفقد الأمل فيه وها هو عاد إليه .. وهي أيضًا فهي وجدت ضالتها في الحب فيه .. فلم تشعر هي بذلك من قبل إلا عندما احتضنته وارتمت بين ذراعيه ..

معشوقي الميت .. الذي سيظلُّ كل شيء لكَ أنت .. فلك أنت كل العشق .. وبكَ أنت شعرت به .. فلكَ أنت كل الأحلام .. ومن أجلكَ أنت حققتُها .. ولكَ أنت كل النجاح .. وبإيمانك بي أدركته .. فلكَ أنت كل الحياة .. وبأنفاسك أنت أحييتني .. ولكَ أنت كل معاني الحب .. وبك أنت تعلمتها .. فلك أنت كل الاشتياق .. لتكون دموعي من أجلك أنت .. فلك أنت كل شيء .. حتى أفنيتَ كل شيء من أجلي أنا ..



لكَ أنت

كن كما تريد أن تكون .. فليس هنا حدود للوقت .. يمكنك أن تتغير أو تظل كما أنت ليس هناك قوانين لذلك.. يمكننا القيام بالأفضل في أسوأ الظروف.. بإمكانك مقابلة آخرين ذوي فكر جديد.. بتقبلك لكل حدث يحدث لك وكأنه يهديك شيئًا جديدًا .. عندها ستعلم أنك على قيد الحياة .. أتمنى أن أفعل الأفضل دائمًا .. أن أرى ما لم أراه..أن أشعر بما لم أشعر به من قبل .. أن أكون جديرة بلقب إنسانة.. وفقط ما سيجعلنا نشعر بإنسانيتنا هو الحب .. الحب الذي يحطم المرء، ولكن يبقى الناس معًا ..الذي يخلق المسافات، ولكن يجعلكم قريبين .. الحب الحقيقي والأبدي.

Cover by ※ahz_art





12 ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور المرج الغربية – القاهرة – مصر
E-mail : daroktob1@yahoo.com
01144552557